ذكريات الزمن الجميل

حكايات من أشيقر

قصص قصيرة

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م

ذكريات الزمن الجميل

حكايات من أشيقر

قصص قصيرة

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م

ح إسماعيل إبراهيم السماعيل،١٤٣٨هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السماعيل، إسماعيل إبراهيم
حكايات من اشيقر/ إسماعيل إبراهيم السماعيل. - الرياض،١٤٣٨هـ
ص؛ ١٤×٢١سم
ردمك: ٧-٣٠٠٣-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١ـ القصص الشعبية السعودية ٢ـ اشيقر (السعودية)
أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٩٥٥٣١ ١٤٣٨/١٣٥٩

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٣٥٩
ردمك: ٧-٣٠٠٣-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

دار تراث الوشم
لنشر وتوزيع الكتب التاريخية والتراثية والعروض الثقافية

ص.ب / ٩٦١ - الرمز ١١٩٦١ - العنوان / شقراء - حليوة - واتس / ٠٥٠٢٠٢٠٧٤٣
dr.alhemaid@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لماذا هذه الحكايات؟

هذه القصص لماذا كتبتها الآن؟

أعرف أن ذلك سؤال يجول في أذهان كثير من الناس كجواد المضمار. سألت نفسي هذا السؤال؛ ولكن بطريقة مختلفة؛ لماذا لا أكتب هذه الحكايات؟

هناك أسئلة نلقيها ولا ننتظر جواباً؛ أما هذا السؤال له لون آخر، ومذاق آخر، يلح عليَّ أن أجيب.

إن التحول الذي يعيشه هذا المجتمع علىٰ المستوىٰ الاجتماعي فرض علىٰ كل مثقف مسؤولية المحافظة علىٰ المنابع الأولىٰ للحياة الاجتماعية، فهي الخيط الرفيع الذي لم ينقطع بعد، الذي يشدنا إلىٰ ماضٍ كان الأجداد أبطاله.

تغير في ذلك الزمان كل شيء، لهجتنا، ومأكلنا، وملبسنا، وأسلوب تعاملنا، والمسكن، ونوع الأثاث.

كل شيء لدينا أصبح ملوناً بألوان خارجة عن البيئة التي كانت تتحدث بلسان عربي مبين.

خادمة سريلانكية، سائق بنغلاديشي، برامج أطفال تخاطب عقلاً غيرنا، أثاث أمريكي، أجبان فرنسية... وهكذا. لم يبق لدينا شيء له رائحة لم يتغير حتىٰ العود الهندي.

منذ أكثر من عشرين عاماً، ونحن لا نصنع أحداث المجتمع ولا حكاياته، يصنعها سوانا، قد نكون جزءاً من تلك الأحداث، ولكننا لسنا كما كنا في الماضي، حينما كنا البداية والعقدة والأبطال والنهاية أياً كانت مأساة أو ملهاة.

لذا وقع انفصال رهيب بين شباب هذا الجيل، وكفاح الأجداد؛ الذي خطوه علىٰ الطرقات، والجدران، والأبواب الخشبية، وعسبان النخيل، وأشعة القمر، ومياه الآبار، والغدران، وأعشاب الصحراء.

وسوف تزداد غربة أطفال اليوم حينما يصبحون شباباً؛ لأن المسافة طالت وبعُدت، ووقعت القطيعة.

فيما مضىٰ كنا نرىٰ ذاكرة القرية نابضة بالحياة، تنتقل فيها الأحداث التي نسجها الصبر والصراع مع ظروف الحياة من الجد إلىٰ الأب إلىٰ الابن كإناء الماء، ليستمر التأثر

والتأثير، كخيط أحلام وأمان لا تنتهي؛ لأن كلا منا يريد أن يكون كمن سبقه.

كانت حلقات الحديث التي تنعقد طوال اليوم في مجلس القرية كتاباً مفتوحاً يقرأه كل من يريد.

الآن أغلق الكتاب، وتبخرت الكلمات، وفقدت الحروف بريقها، وهدأ ضجيج الحياة.

يمضي الشاب جزءاً من عمره لا يتحدث مع من يفوقه سناً وتجربة عن تلك التجارب التي كانت ماضياً لا يجد أنس الذكرىٰ به إلا من عاشه.

أما هذا الزمن، فله ثياب أخرىٰ.

رجل التجارب في منزله وحيداً، والشاب في الشارع يقتات الفراغ، أو يتحدث مع وافد بلغة تعمد كسر عظامها.

في المنزل قديماً، وفي ليالي الصيف التي قد تهب فيها النسائم التي تحمل في أجنحتها رائحة التمر، وفي ليالي الشتاء الباردة التي كانت توثق التكاتف الاجتماعي، كانت ذاكرة القرية ما تزال تدور، ونبع التجارب ما يزال يتدفق من حديث

الجدات، تروي ظمأ الشوق إلىٰ ماضٍ لم يعشه السامعون.

لذا كان لابد من الكتابة، وتسجيل هذه الحكايات التي لم أكن بطلها، وليس لي فيها إلا تسويد الصفحات.

أما الكاتب الحقيقي فهو الذي عاشها بصدق من دون أن يدري أنه سيأتي كاتب يوماً ليعيد صهرها علىٰ الورق.

ازدحمت الذاكرة بمئات القصص والحكايات؛ فكان طريق الانتقاء صعباً، كيف اختار من بين هذه التوائم المتشابهة؟

حاولت أن تكون تلك الحكايات كسلّة زهور، ألوان متعددة، وروائح مختلفة، كطبق من الفاكهة المتنوعة، له أكثر من طعم.

وكان لا بد من الكتابة؛ لكي يصبح هذا الخيط الرفيع الذي ما زال يشد بعضنا للماضي كشعرة معاوية يد إنقاذ تمتد إليها من تجارب الماضي لنبني مجد الحاضر بسواعدنا، لا بسواعد الآخرين.

وقد كتبت جزءاً من هذه الحكايات منذ خمسة عشر

عامـًا، وعرضتها عل بعض الزملاء لمعرفة رأيهم حولها؛ حيث جاءتني راء مختلفة من شخص لآخر.

فأحدهم أشاد بها وأوصىٰ بطباعتها، وآخر اقترح تحويلها إلىٰ حلقات تليفزيونية علىٰ غرار (طاش ما طاش)، وثالث أبدىٰ إعجابه بالأسلوب الساخر في بعض الحكايات، ورابع لم تعجبه هذه الحكايات، وقال إنه ينتظر كتابة رواية تتحدث عن... وذكر أنماطـًا من المشاكل التي يجب أن تتضمنها الرواية باعتبار أنني مررت بها، ولقد تعجبت من هذا الرأي الشاذ؛ لأن قائله يعرف أنني في حياتي لم أمر والحمد لله بأية مواقف معقدة، أو صعبة، وأن أيامي كانت تتميز بالوضوح الذي يجعلني بعيداً عما ينظره، ومما زاد في عجبي هو تناقض هذا الصاحب بين ما يقوله، وبين ما يعمله؛ مما جعلني لا أعطي رأيه أي اهتمام.

بسبب ضغط العمل اليومي صباحـًا ومساءً، أجلت التفكير في موضوع طباعة هذه الحكايات خاصة وأنني أرىٰ ضرورة زيادتها، ودعمها بحكايات أخرىٰ حتىٰ أُحلتُ علىٰ

التقاعد؛ فوجدت فرصة لإعادة النظر فيها، وكتابة حكايات أخرىٰ، وهو ما حدث، إلا أن الملاحظ أنني في المرحلة الثانية للكتابة اهتممت بنوع من الحكاية كان غائباً عن الحكايات الأولىٰ، هذا النوع يعتمد علىٰ النفس الأسطوري، أو شبه الأسطوري في الحكاية، وقمت بكتابة هذه الحكايات انطلاقاً من مبدأ رواية الواقع كما هو، وكيف يحكي دون الدخول في مسألة صدقة أو كذبة أو كونه واقعاً صحيحاً أو خيالياً.

ولعل السبب الأساسي الداعي لكتابة هذه الحكايات أو بالأصح لتسجيلها باعتبارها واقعاً استمعت إليه من ألسنة المتحدثين به هو الاحتجاج علىٰ السلبية المطلقة، والكسل العميق الذي يعيشه المجتمع القروي في أشيقر وفي غيرها من القرىٰ؛ حيث سمح هذا الكسل باندثار ذاكرة القرية الشفوية الشعبية، التي تختزنها أذهان كبار السن في المجال الاجتماعي والتاريخي والسياسي وغيرها، وسمحنا لها بأن تذوب وتذهب إلىٰ غير رجعة، من دون أن نكلف أنفسنا تسجيلها

ممن عايشوها أو حفظوها، عدا ما يخص الأوقاف لأنها مكتوبة بأقلام العلماء ورجال الدين.

للأسف الشديد أمضيت أعواماً تصل إلىٰ عشرين عاماً، وأنا أتصل وأتحدث مع أشخاص يتمتع آباؤهم بذاكرة قوية تختزن آلاف الحكايات التي تصور الحياة الواقعية لهم ولمن عاش قبلهم بصدق، وأطلب من هؤلاء الأشخاص تدوين ما لدىٰ آبائهم من حكايات وقصص وحوادث وأشعار، ولكن للأسف لم يستمع إلىٰ كلامي أحد من هؤلاء حتىٰ انطمرت (ذاكرتنا الشعبية) لوفاة هؤلاء العظماء.

واتضح لي أن هذا الخطأ الكبير ارتكبه المجتمع بجميع طبقاته لا فرق بين خريج الجامعة أو من لا يحمل سوىٰ الشهادة الابتدائية كما اتضح لي أن هؤلاء الأشخاص بلغ بهم الكسل والتراخي حداً يجعلهم لا يمدون أيديهم لأقلامهم إلا لتوقيع الحضور أو الانصراف من دوامهم اليومي إلا قلة منهم تحتم طبيعة عملهم أن يقدموا شيئاً ولو ضئيلاً.

وهكذا أصبحنا في هذا العصر في مرحلة اللاتوازن

ومجتمعاً بلا ذاكرة لأننا لم نسجل ذاكرة الماضي، ولا نصنع الحاضر الذي سلمنا أمره للعمالة الأجنبية، وأصبحت مهمتنا اليومية هي إضاعة الوقت في لعب الورق، أو مشاهدة مباريات القدم، أو متابعة المحطات التليفزيونية، أو اللعب بجهاز الجوال، والنوم في وقت متأخر، والصحو في وقت متأخر أيضاً.

لكن مما يخفف عني وطأة الإحساس بالذنب أنني لم أكن من هؤلاء؛ حيث قمت من جانبي بتسجيل جزء بسيط من هذه الذاكرة الشعبية، وجعلته بين الناس معلوماً ومذكوراً؛ لأنني لا أرضىٰ لنفسي أن أكون ممن ينطبق عليه قول الشاعر: (لا تنه عن خلق وتأتي مثله)، وأقنعت والدي رحمه الله أن يكتب ذكرياته عن التعليم أيام الكتاتيب وما بعدها، وحينما كنت أعمل مقرراً عاماً للجنة العليا لموسوعة تاريخ التعليم أعددت خطاباً شخصياً بتوقيع الوزير الدكتور محمد الأحمد الرشيد رحمه الله، موجهاً إلىٰ والدي وسواه من رجال التعليم المخضرمين، والذين شهدوا بداية التعليم

النظامي، ثم تابعت الموضوع مع الوالد؛ حيث قام بكتابة مذكرة تتكون من (250) صفحة جاءت كشكولاً يضم وقائع تربوية واجتماعية وتاريخية ودينية، سيتم طبعها قريباً. كما قمت بإعداد مذكرة عن أمثال أشيقر الشعبية، أفكر حالياً في مسألة إصدارها في كتاب، وقمت أيضاً بكتابة عدة مذكرات عن واقع أشيقر القديمة، وجمع عشرات الأبيات من الشعر الشعبي الأشيقري، التي تصور الحياة في زمن مضىٰ وسمحنا له بالزوال، ولعل خاتمة ما كتبته في هذا المجال هذه الحكايات التي آمل أن أتبعها بحكايات أخرىٰ.

أود الإشارة إلىٰ أن هذه الحكايات كانت حكايات اجتماعية واقعية، حدثت علىٰ ثرىٰ أشيقر، وأوردتها كما حدثت، سوىٰ إخفاء معالم أبطالها الذين استعملت الكنىٰ بدلاً من أسمائهم لاعتبارات اجتماعية، غير متدخل في حوادث الحكاية، وليس لي فيها سوىٰ كتابتها بنص أدبي فصيح بعيداً عن العامي، ولم أصدر أحكاماً بصدقها أو عدمه؛ لأنني كاتب ولست قاضياً، علىٰ أن ذلك يخص

القصص الواقعية، أما القصص ذات الحدث الأسطوري فأوردتها كما هي تقريباً بشخوصها، عدا حكاية واحدة؛ لأن ظروف الكتابة عنها تتطلب ذلك.

هل وفقت؟ لعل وعسىٰ فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمني.

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

0505227082

1 - الفرج بعد الشدة

1 -الفرج بعد الشدة

وقف أبو راشد يتأمل سنابل القمح وقد أنبتت كل سنبلة مائة حبة، وهي تتراقص ذات اليمين وذات الشمال مع نسائم الربيع المنعشة، ويبرق وميض السعادة في عينيه وهي تكاد تخلع رداءها الزمردي الذي أهدته إليها أنداء الفجر الربيعية، لتلبس رداءها الذهبي الذي طرزته خيوط الشمس الذهبية بحرارتها التي تزداد توهجاً كلما قربت "يوماً" من نهاية الربيع، ومن ذلك. كانت تمر في عيني أبي راشد لحظات حزن غامضة جداً. لا يكاد يعلمها إلا من عرف معاناته مع الفقر والعائلة التي لا تجد ما يسد رمقها، كان يضع يده على قلبه خوفاً. كما هو شأن بقية الفلاحين. حينما يروا في الأفق قطعة غيمة بحجم الدينار.وخوفاً من أن تكبر مثل كرة الثلج ثم تهطل كمسبحة مقطوعة على رؤوس السنابل. فيضيع جهد سنة بكامله مع حبات البرد.

لم يكن أبو راشد. يرفض المطر. ذلك العطاء الإلهي.

الذي لا نهاية له. فطالما كان يردد عبارته المألوفة المغموسة في إناء التلقائية والبساطة (يالله بمبرود ولا مجرود).

كان يفرح بالمطر حتىٰ لو تحول إلىٰ كتل من البرد المنهمر في بداية الموسم قبل أن تفتح حبات القمح شرانقها. لأن ذلك سوف يساعدها علىٰ الارتواء والنماء بسرعة. أما بعد استوائها فإن لذلك الخوف ما يبرره.

لم يكن الخوف من المطر هو الشيء الوحيد الذي يسرق منه الابتسامة ولو للحظات.

كان هناك خوفه من ألا يستطيع أن يسقىٰ هذه السنابل شربتها الأخيرة قبل الحصاد. هذه الشربة التي تمنحها القدرة علىٰ مقاومة حرارة الشمس. وهبوب الرياح الموسمية. إنه يخشىٰ من أن يفلت خيط الأمل من بين أصابعه في اللحظة الأخيرة.

وكان هناك خوف علىٰ عائلته التي تركها والده في عنقه أمانة ورحل إلىٰ جوار الله.

هداه تفكيره إلىٰ البحث عن شخص أو شخصين

ليستأجرهما ليقوما بسقاية زرعه قبل حصاده على طريقة (غرب الزعب).

استحسن أبو راشد الفكرة. ولكنه أطرق يحدث نفسه قائلاً وأين لي بذلك الشخص؟

إن هذا عمل شاق جداً لا يمكن أن يقدم عليه إلا من يملك قوة شمشون وعنتره. معاً إنه أشبه بإزاحة تل من مكانه ولابد أن يكون العامل معدماً حتى يقبل بهذا العمل الخطير الذي قد يؤدي إلى قطع نياط قلبه. ولو وجد هذا الشخص. فأين له أن يفي له بمتطلباته الكثيرة من أكل وشرب ونقود وهو الذي ينيم أخوته باكراً لكي لا يطالبونه بطعام العشاء.

أسئلة كثيرة. لا تغني شيئاً فالوقت يمر، والدقائق تطير من عمره كدخان عود لم يشتعل لهبه. والسنابل ترمقه بعيني غريق وتقول أنقذني لأنقذك.

لم يكن أمامه إلا أن يعلق رجاءه بالله فلعل الفرج يأتي بعد الشدة.

وقرر أن يغامر فإما أن ينجح وإما أن يجد له عذراً أمام

بكاء إخوته الصغار ولن يضيره الفشل. فهو صديقه الوفي الذي لم يفارقه لحظة.

سار في طريقه عائداً إلىٰ منزله. مقتنعاً بنصيحة جاره. بالبحث عمن يقوم بمهمة السقي الأخيرة. وفي طريقة التقاه شخصان من أهالي القرية تتحدث ملابسهما عن الجوع الذي يسكن الجيوب. وتقول للناس: نحن فقيران فلا تنسونا.. كما قال أبو العباس المرسي.

سألهما هل تستطيعان العمل معي؟

قالا. وماذا نعمل؟

تسحبان الماء من البئر لمدة يوم.

وسألاه وما المقابل؟

فأجاب افرضا ما تشاءان.

قالا.. ربع ريال.. لكل منا.

وماذا؟

وأن تتكفل بوجبة بعد صلاة الفجر. قبل أن نذهب للعمل. وأن تتكفل بالهجور. طعام منتصف النهار. وبالعشاء

بعد المغرب.

قال: ولكن من أين لي هذا؟

فأجاباه: إذا لم يكن لديك شيء فلماذا تطلب من المعدم أن يهديك روحه بلا مقابل.

في تلك اللحظة سمع أحدهما يتمتم بهذا البيت الذي تنزف كلماته كل معاناة الفقراء:

غرب الزعب يبي هجور ما هوب لعب وخربطة

أدرك أبو راشد السر في غناء هذا البيت، ووافق علىٰ تلك الشروط المجحفة.

وتواعد معهما فجراً.

ذهبا عنه وهو مطرق في التفكير. كيف سيحل معضلة تلك الشروط؟ وبعد أن اختفيا عنه في منعطف الطريق. سمعهما. وأحدهما يسأل صاحبه. قائلاً:

ولكن إذا لم يدفع لنا أبو راشد شيئاً فماذا نصنع؟

فقال الثاني: نأخذ غربه.

ترىٰ ماذا لو كان يعلمان أن الغرب مستعار؟

نظر أبو راشد إلىٰ الأفق ليعرف كم بقىٰ من الوقت قبل غروب الشمس.

قدر ذلك الزمن بساعة، وإن لم يكن يحمل في يده تلك الآلة السحرية التي سمع عنها، ولا يكاد يملكها في القرية سوىٰ فرد واحد. يحافظ عليها وكأنها زمردة في متحف عثماني. بل وأعطته مكانة اجتماعية يحسده عليها كثير من الأهالي.

ذهب إلىٰ مجلس القرية. وتوجه إلىٰ حلقة حديث يجلس فيها تجارها، وهمس في أذن أحدهم، وكأنه يبيعه شيئاً محرماً.

نهض التاجر وأمسك بيده واتجها إلىٰ الحانوت.

سأله: ماذا تريد؟

أجاب أبو راشد. قليلاً من السكر الأحمر والشاي.

سأله التاجر: وهل لديك نقود؟

فقال: سوف أوافيك بها قريباً.

فقال: التاجر انتظر.

لقد أعطاه فرصة للفرح الضئيل. ولو لم يكن التاجر راغباً في مساعدته لكان بإمكانه الاعتذار.

هكذا تخيل المسكين أبو راشد.

اختفىٰ التاجر في نهاية متجره المظلم. كنفس حسود، وأخذ يحرك شيئاً ليشعر هذا المسكين بأنه يبحث عن رغبته الضائعة في جوف الظلام.

بعد قليل عاد وهو يحمل في يده "تنكة" مقلوبة فوهتها إلىٰ أسفل كحكايات أحمد رجب، وينقر عليها بيده وكأنها دف في عرس شعبي وقال آسف. لم أجد شيئاً.

تلقي أبو راشد الضربة مضاعفة. كان بإمكان هذا الطماع أن يعتذر قبل أن يجعله يتعلق بشعاع التفاؤل.

وهكذا خرج أبو راشد من الحانوت بمصيبة أخرىٰ كمن طعن بخنجر مسموم علىٰ حين غفلة.

لقد اقفل الباب في وجهة كطالب فاشل وصل إلىٰ المدرسة متأخراً..

استبد به غضب يكاد أن يقطع أوداجه، وهو يغادر

مجلس القرية متجهاً إلىٰ بئر قريبة ليتوضأ استعداداً لصلاة المغرب. ولكنه ضحك فجأة (وشر المصيبة ما يضحك)، وتساءل وماذا سينفعني الغضب؟ سأخسر أعظم ما أملك وهو الصحة والعافية التي يتمناها كثير ممن امتلأت بطونهم. إذا خسرت الدنيا هل أخسر هذا التاج؟ لا. هكذا قال: واستمر في طريقه وابتسامته تتسع كأم بشرت بعودة أبنها الغائب أو طفل تلقي هدية بغير موعد.

وفجأة التقىٰ في طريقه برجلين أحدهما يملك من الله علماً. استطاع به أن يعتلي القمة في قلوب الناس.

أما الثاني فصديق له ينظر إلىٰ مصاحبة العالم كأنها الطيب إن فاته ربحه ما فاته ريحه. كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

استوقفاه وقالا له:

إلىٰ أين أنت ذاهب يا أبا راشد؟

إلىٰ البئر للوضوء فصلاة المغرب قد حانت، والمؤذن قد استعد لإجابة داعي الله.

قالا له:

نريد أن نزور منزلك بعد الصلاة مباشرة لنتحدث معك قليلاً.

قال لهما: ضيافتكما أمر واجب علىٰ كشهر الصيام. ولكن والله لا أملك شروىٰ فقير.

أخرج أحدهما ريالاً من جيبه.. وقال له خذ هذا الريال وتدبر أمرك. ونحن عندك بعد الصلاة.

أخذ يقلب الريال علىٰ وجهيه في كفه، ويتساءل: كيف حدث هذا؟ وهل من سر يرفض هذا الريال الفضي أن ينطق به.

وسأل نفسه أكان ضحكه بعد غضبه لأن نفسه كانت تشعر بالفرج الذي سيطل عليه بعد قليل؟

قرر ألا يذهب للبئر. سيعود أدراجه ليصلي في المسجد المجاور لمنزله احتراماً لموعد ينتظره.

اخترق مجلس القرية والشمس تكاد تغرق في بحيرة الأفق الوردية. أو كقطعة خبز في (إيدام) كما قال ابن لعبون يصف ديار محبوبته الغارقة في السراب حينما قال:

يـا منـازل مـي في ذيـك الحـزوم
قبلـة الفيحـا وشـرق عـن سـنام
في سـراب مـن حواليهـا يـدوم
طافحـات مثـل خبـز في يـدام

رأىٰ التـاجر وهـو يغلـق بـاب حانوتـه الخشـبي بالضبة والمفتاح. أسرع إليه، وبدون أن يكلمه وضع الريال في يده، ونظر إليه بعين عرفت لذة الانتصار لأول مرة.

قلب التاجر الريال، وعاد ليفتح دكانه مرة أخرىٰ. ولـم يسأل أبا راشد.. ماذا يريد. فما زالت رائحة الموقف السابق لم تفارق متجره بعد. والريال السحري أعطاه الجواب عن سؤال انتفت الحاجة إليه.

اختفىٰ في نهاية دكانه المظلم. وهنا استطاعت يده التي يشع منها ضوء الريال أن تستدل إلىٰ موضع الشاي والسكر الأحمر والقهوة. أحضرها، وسلمها لأبي راشد بيد مرتعشة، ونفس مضطربة. يكاد يصرعها الإحساس بالذنب أمام فقير.

لم يرحم دموعه التي كانت تحرق خده في اللقاء الأول.

أخذ أبو راشد ما اشتراه وبقية نقوده. وخرج والفرح يملك عليه جوانب نفسه كغريق فقد الأمل. وامتدت إليه يد النجاة بلا موعد.

أسرع في طريقه للمنزل. ووضع كل ما اشتراه في علب صدئة. وذهب لأداء الصلاة، وقلبه يقول.. كم أنت رحيم يارب..

أدىٰ صلاته بخشوع. لم يكن ليحصل. لو دخل المسجد، والمآسي تجري في عروقه. لقد كانت ستسرق منه الروحانية التي يجب أن تكون خلقه أمام الله.

بعد الصلاة أشعل النار.. في عسبان النخيل اليابسة انتظاراً لموعد لابد أن يحمل له بشائر سارة.

أحس أن النور قد بدأ يغمره بسعادة لم يعرف لها طعماً منذ أن واریٰ والده جوف الثریٰ.

فجأة سمع طرقاً علىٰ الباب. لقد كانا الرجلان اللذان التقياه منذ ساعة.

قفز درج المنزل الطيني دفعة واحدة. ورحب بهما.

دخلا.. وجلسا.. يتحدثان عما رأته عيونهما هذا اليوم منذ صباحه حتىٰ مسائه من حكايات كتب الفلاحون حروفها بقطرات العرق المتساقطة كالندىٰ من جباههم.

أما هو. فانشغل بإعداد القهوة. ولم يسألهما عن بقية الفرح.. لكي لا يفقد لذة التلقي. ترك الأمر للمفاجأة التي ستهزه بعد قليل بعنف محبب. انتهىٰ الاحتفال البسيط. فالضيفان لم يحضرا ليثقلا عليه. رغبا في الانصراف. خاصة وأن صلاة العشاء لم تعد بعيدة عن فؤادين ينبضان بحب الله.

قالا له: أخذت ريالاً أليس كذلك.؟

قال بلهفة تنتظر مزيداً من الفرح: نعم..

قالا: وهذه خمسة وعشرون ريالاً، وسلماه صرة من القماش الأسود تحمل هذا الفرج. أخذ يحل عقدها. وكلما انحلت عقدة شعر بأن الزمن المغبر قد رحل. وأن جميع مآسيه قد حلت، وذابت كقطعة سكر في ماء.

وسألهما؟ ما هذا؟ وما سر هذا العطاء الذي يزري بزبد

البحر لحظة المد؟

قالا إنه من أخيك الغائب. لقد أرسل هذه النقود مع القافلة التي وصلت اليوم للمنطقة.

فازدادت الفرحة، وتحولت إلىٰ نهر من السعادة يزهر علىٰ جانبيه الأمل.

أخذت ملامح الشجن تصغر قليلاً قليلاً حتىٰ توارت في حياء، وزادت مساحة السرور في فؤاده. لقد زال عنه خوفه من أن يكون أخوه صريع الحمىٰ والغربة.. معاً..

رأىٰ أخويه الصغيرين نائمين. والأم تراقبهما بعينين غارقتين في بحر من الأرق والهموم.

لم يحاول أن يقول لها شيئاً. عما حدث له. ربما لا تصدق. أو يحدث لها الفرح صدمة قد لا تقل أحياناً عن مفاجأة المصيبة.

هدأ ضجيج القرية. واختبأ الناس في كهوفهم المظلمة إلا من شعلة حزينة لا تلبث أن تنطفئ. أو مواء قط جائع. أو صوت دابة أرهقها كد النهار. وجوع الليل.

وأبـو راشـد هـادئ الـنفس كنهـر النيـل سـحراً. ينتظـر أن يتحـول هـدوء القريـة إلـىٰ همـس لا يكـاد تسـمعه أذنـاه. لكـي يتدبر أمره مع موعده مع غرة الفجر.

خرج من بيته وهو ينظر للنجـوم التـي لـم ينظـر إليهـا منـذ زمن.

لقد كانت هامته منحنية إلىٰ الأرض كنخلة لـم تذق للمـاء طعمـاً منذ عشرات السنين.

أمـا الآن فحـق لـه أن يرفـع بصـره إلـىٰ السـماء وليسـتمتع بضوء القمر. الذي يغمر منازل القرية بأشعته الفضية.

بعد هذا اليوم لن يحني رأسه إلا لله مصليـاً.

طرق أبو راشد باب منـزل أحـد الفلاحـين الأغنيـاء الـذي يقع قريبـاً منه.

لـم يكن ذلك الفلاح قد نام بعد. ما زال يجـري اسـتعداده لكفـاح اليـوم التـالي. ولكنـه اسـتغرب هـذا الطـارق في هـذه الساعة التي نام فيها كل الناس إلا المتهجدون.

فتح الباب. ويده علىٰ قلبه خوفـاً مـن أن ينقـل إليـه لسـان

هذا الطارق. خبراً مزعجاً.

من صوت الطارق. لا وجهه لأن الظلام يخفي الملامح كلوحة تجريدية

عرف محدثه

خير أبا راشد ماذا تريد؟

دعني أدخل. لا أريد أن يراني أحد.

وأقفلا الباب.

وقال الفلاح الغني: ماذا حدث لك في تلك الليلة؟

لماذا قادت قدماك شبحك إليّ؟

أخبره بأن أخوته يتضورون جوعاً، ويريد منه شيئاً يسكت عصافير بطونهم.

قال الفلاح: خذ ما تريد؟ يدك تأمرك وتنهاك. ما في البيت مالك لا مالي.

لم يسأل أبا راشد عما لديه من نقود أو يحضر له إناء فارغاً كما التاجر الأول.

واشتد العجب بأبي راشد من اختلاف طبائع البشر.

كصيدلية تجمع في رفوفها بين البلسم والسموم.

شكر للفلاح الغني هذه الأريحية التي نزلت علىٰ فؤاده كقطرات المطر علىٰ صحراء قاحلة.

وأخبره بأن الحال ميسورة. فلقد أتىٰ الفرج بعد الشدة.

وطلب منه. تمراً. وقمحاً.

نزل الفلاح في بئر التمر. وأخذ حفنة يقطر عسلها كغمامة نشرت ذوائبها، وأعطاها لأبي راشد ليسد جوعه ريثما يحضر الكمية التي اشتراها.

لم يأكل منها أبو راشد. لقد خاف عقاب الله أن يشبع وأسرته جائعة. رآه الفلاح وسأله لماذا لا تأكل؟ أخبره إن هذه دعوة مني لك. أترفض ضيافتي.

أجابه أبو راشد قائلاً: لا. ولكنني لا أريد أن أمنح نفسي سعادة ضلت طريقها إلىٰ أسرتي منذ أعوام.

ما كان من الفلاح الغني إلا أن أخذ حفنة أخرىٰ من التمر وقال تلك ضيافة أسرتك إنها خارج الصفقة.

أخذ أبو راشد تمره، وحمله علىٰ رأسه وهو يحس بثقله

كمن يحمل جبلاً.إنه يعرف أن ما اشتراه أقل. ولكن هذا الفلاح الطيب أعطاه أكثر، ولحقه الفلاح بالقمح. وعاد إلىٰ منزله.

رأىٰ أبو راشد والدته ما زالت مستيقظة، وهي تربت بكف الحنان علىٰ خصلات شعر الولد الصغير. قدم لها قليلاً من التمر، وطلب أن تقتل الجوع الذي يسكن منذ أيام في أمعائها.

سألته. من أين لك هذا؟ لعلك استدنت. لكي تحمل علىٰ ظهرك جبل دين لن تستطيع أكتافك مقاومته؟.

أجاب اطمئني. فيد الخير تطرق كل مساء بحيث لا يراها إلا خالقها.

وأعطاها قليلاً من القمح. فابتسمت ابتسامة لم تعرف لها طعماً منذ سنوات.

وسألته بألم: لابد أن وراء كل حبة قمح وحبة تمر سراً. أخبرني، وإلا فلن آكل شيئاً لا أعرف في أي حقل أينع.

هنا أخبرها بالقصة.

لم تكن فرحتها أقل منه بل كانت أعمق من البحر. لقد أحست أن الغائب ما زال حياً.

أيقظت طفليها الصغيرين. وقدمت لهما بعض حبات التمر. وقليلاً من ماء القربة المعلقة فوقهما.

أكلاً وشرباً، ووجدا أنهما بحاجة للحديث وسماع الحكايات. لا للنوم وأخذت الأم قليلاً من القمح لتستعد لموعد ابنها مع الفجر، وشعورها بالرضي لا يحده وصف. ولا قلم.

وبعد صلاة الفجر. جاء الموعد. وطرق العاملان الباب.

دخلا ليجدا أبا راشد في نشوة فرح يحاول أن يخفي جزءاً كبيراً منها عنهما، فلم يستطع. لم يجد حلاً إلا أن يعجل لهما بالأكل. الذي أعده لهما.

قدم لهما خبزاً شعبياً.. صنعته أعظم طاهية في الدنيا.

أكلا وعرفا طعم القهوة. التي لم تعرف طريقها إلىٰ حلقيهما منذ أيام. وفرك كل منهما يده بالأخرىٰ قائلاً: الحمد لله..لم يغسلا أيديهما. لقد كانا بحاجة إلىٰ رائحة الطعام

العالقة بهما لتساعدهما علىٰ الشبع الكاذب حين يشتد بهما الجوع.

خرج العاملان. وبدأت المهمة الشاقة. يجران الغرب المملوء من أسفل البئر إلىٰ الريهجان حتىٰ صلاة الظهر. يبدو أن الأكل الذي أعده أبو راشد لهما فجراً قد أجل بداية التعب لديهما.

بعد الظهر. لم يطلبا منه شيئًا. لأن أحد الفلاحين الأغنياء دعاهما للانضمام إلىٰ بقية العاملين لديه. علىٰ مائدة قوائمها الشفقة والإحسان وحب الخير.

شاركا بقية العمال الأجراء الذين يعملون "بالجازة" صحن التمر الذي يرتفع كهرم صغير. وقربه اللبن التي تغدق ذلك الغذاء الكامل كشلال.

وواصلا عملهما. وأبو راشد في حقله بين سنابله يقوم بتوزيع حبل الماء الممتد من البئر إلىٰ قوائم السنابل الصفراء بين الأحواض في سعادة امتزجت بنسائم الربيع المنعشة، ونقشت شيئًا من بريقها علىٰ ذوائب السنابل.

بعد صلاة المغرب عاد العاملان. طرقا الباب. ليضعا نهاية للقصة التي بدأت أمس.

رحب بهما أبو راشد، وشكرهما علىٰ إخلاصهما في أداء المهمة. وروحه تكاد تثب من شدة الانتصار. لقد فرج الله كربته. فلن يأخذا غربه المستعار.

قدم لهما طعام العشاء.

شربا الشاي في فنجان زجاجي معصوب بعد أن تعرض للتصدع عندما سقط من يد والد أبي راشد قبل أن يموت، وأخذا نقودهما الزهيدة وعندما همّا بالمغادرة سألهما أبو راشد: هل ستأخذان الغرب؟

ضحكا. وعرفا أنه سمع ما قالاه بالأمس.

2 - المقايضة

2 -المقايضة

كانوا أربعة.

أبو علي وامرأته وابنه علي. والعنزة الأثيرة.

يضمهم بيت طيني. لا تتجاوز مساحته ثلاثين ذراعاً تهطل أشعة الشمس من خلال سقفه المصنوع من جريد النخيل صيفاً. ويجود عليهم بحمام بارد من حبات المطر التي تتدلىٰ من شقوق هذا السقف شتاء.

أما الحمار. فلا مكان له نهاراً. حيث تقوم العائلة بشد وثاقه إلىٰ جذع مغروس في الأرض. كخنجر في قلب مظلوم. في الأرض المقابلة.

وفي الليل يمنح شرف الانضمام إلىٰ الأسرة داخل المنزل. فيربط في (صاير) الباب.. كمريض مصاب بالجذام.

شب الابن عن الطوق. لقد بلغ الثالثة عشرة، وعليه أن يبدأ مرحلة الكفاح مع والده. فالنضوج العقلي والجسمي في ذلك الزمن الرائع حتىٰ في ظلام البؤس لا يمكن أن يتأخر إلىٰ سن الخامسة والعشرين. كما يحدث الآن.

أحس الابن أن موارد القرية غير قادرة علىٰ منحة فرصة المشاركة في صنع الأحداث اليومية.

لقد ضاق إيمانه المتوثب بالعمل بحالة الكسل التي يلوكها كل صباح ومساء رغماً عنه. كما ضاق بمشاركة العنزة له سجنه الصغير. طوال العام. رغم الألفة التي جمعت بينهما، وقرر الرحيل إلىٰ (الديرة حدر)[1] ليمارس حظه في الغوص فهناك تغدق عليه، وعلىٰ أمثاله شواطئ الخليج الزرقاء بالأمل الباسم في أصداف اللؤلؤ القابعة في قاع البحر.

أخذ الابن متاعه. ثوباً ممزق كأحلام البؤساء تحول إلىٰ غابة من الألوان بسبب.. الرقع التي تتوزع علىٰ أجزائه كشظايا لوح من الزجاج الملون، وعصا قطعها من إحدىٰ شجر (السلم). وقدمين حافيتين لا تحسان بحرارة الجمر لخشونتهما.

قبل رأس أبيه، وتعطر بدموع أمه، وهي تشبعه تقبيلاً وهي تودعه وداع من تظن أنه لن يعود.

---

1 - تعبير يقصد به (المنطقة الشرقية).

سار علىٰ قدميه متتبعـاً خطىٰ قافلـة الإبـل الراحلـة. حتىٰ ابتلعه الأفق، وغـرق جسـمه في بحـر السـراب اللامـع. كقطعـة من الحجارة ألقيت في يم هائج.

نقصت العائلة غصنا كانت تحلم بأن يشتد عوده. فتستند عليـه في كفاحهـا اليـومي كبطـل يحمـل لـواء جيشـه في معركـة حربية، ولكنها لـم تستطع لضيق اليـد أن تمنحـه فرصـة البقـاء معها فتركته يرحل، وفي عينيها حزن كحزن يعقوب.

حتىٰ العنـزة فقـدت ذلـك الأليـف فصـارت تقطـع ليلهـا بثغاء يطرد النوم من عيون الأبوين، وعيون الجيران.

هكـذا الحيـاة حيـث كـان الأبـوان يوزعـان حنانهمـا بالتساوي بين الابن وبين العنزة. حينمـا غـاب فلـذة الكبـد في متاهات الحياة. عاشا علىٰ مشهد الذكرىٰ التي ترطب قلبيهمـا بالمحبة التي ازدادت اشتعالاً لذلك الغائب.

قررا أن يمنحا ما توفر لـديهما مـن حنـان علـىٰ الابـن إلـىٰ هذه العنزة الأثيرة.

اهتما بتربيتها وإطعامها؛ فكان الأب يخرجها صباحـاً مع

الراعي، ويذهب ليقطع بعض الشجيرات والأعشاب التي تنمو بتطفل في شقوق جدران البساتين وكان يقوم في طريق العودة بالانحناء لالتقاط أعواد البرسيم المتساقطة من علىٰ أكتاف الفلاحين العائدين إلىٰ منازلهم عند الغروب. ومع الأيام اكتنزت تلك العنزة لحماً وشحماً زاده قدوم الربيع نضارة البلور. فجادت علىٰ العائلة بطفل!

امتلأت أطباؤها باللبن حتىٰ الاحتقان مثل حافظة غني مليئة بالنقود. ينهل رضيعها منه صباحاً ويعل مساء، ويفيض بنمائه علىٰ الأبوين. فتسرىٰ دماء الحياة في جسديهما بعد طول شقاء كتب الجوع قصيدته الحزينة.

كانت فرحتهما بحليب العنزة يشوبها شيء من النقص لعدم وجود السكر. حينما كان الابن حاضراً عندهما كان يعوض نقص "الحلاوة" في حلقيهما بطعم الحضور الدائم والمشرق بالبراءة. أما الآن فإن حليب العنزة أصبح ممزوجاً بالحزن علىٰ الغائب الغالي.

خرج أبو علي ذات صباح باكر تسكب عليه قطرات

المطر المتساقطة في رتابة وهدوء شيئاً من الابتسامة والرضىٰ. التي منحها له إيمانه العظيم بالله الذي منحه الصبر علىٰ الفراق المر كالحنظل.

وفي زاوية في مجلس القرية. وجد صديقه أبا صالح ملتحفاً بعباءته التي كادت أن تتحول إلىٰ سحابة بعد أن امتصت خيوط المطر النازلة.

أخذ الشيخان يتبادلان الحديث عن الشجن اليومي وكيف قضىٰ كل منهما الليلة الماضية.

كان حديث أبو صالح معجوناً بنغمة حزن علىٰ الشاة التي ماتت البارحة، ولم يعد يقص أخباره عن رحلة الصيد اليومية، لقد كان آخر درهم في جيبه يمنع عنه الفقر الزاحف علىٰ جيبه، ولو إلىٰ حين. لقد رحلت تلك الشاة الغالية، ولم يتمكن من ذبحها علىٰ الأقل ليهنا بشيء من لحمها الذي استشرىٰ فيه المرض الذي صرعها.

لم يكن يهمه، ولا بقية الفقراء الخوف من هذا الداء الذي يختلط بكل جزئيات اللحم. فالفقر والجوع أشد فتكاً.

ولكن الموت المفاجئ حرمه تلك اللذة. فالدين يمنع أكل الميتة، ولم يرض قلبه برخصة المضطر.

قال أبو صالح لصديقه أبي علي: الآن أصبح السكر الذي يمزج كل صباح بحليب الشاة يتيماً بعد أن فقد توأمه.

أطرق أبو علي مفكراً. في تلك الحالة المتضادة المتناقضة التي يعيشها وصديقه. هو يملك الحليب ولا سكر. وأبو صالح يملك السكر، ولا حليب لديه. لماذا لا يعقد معه صفقة مقايضة في مجتمع لا يكاد يسمع رنين الدراهم.

عرض علىٰ صديقه أبو صالح فكرة المقايضة تلك ووافق عليها.

كل صباح يأتي أبو علي بعد صلاة الفجر بإناء مملوء بحليب العنزة.

أما أبو صالح فيستعد بإشعال النار في حجرته الضيقة التي لا يعرف الدخان المتصاعد طريق الخروج منها إلا بالارتداد إلىٰ حلقه، وخياشيم جلسائه كالجالسين في مقهىٰ شعبي.

يطرق أبو علي الباب مستأذناً. ويدخل، ويمد الإناء الذي يفيض بالحليب كهرم ثلجي إلىٰ صديقه الذي يقوم بصبه في إبريق مهشم الجوانب كمريض مصاب بالصدفية.

يوضع الإبريق علىٰ النار. حتىٰ تعلو رغوة الحليب من شدة الحرارة. كالصابون المسحوق، ويرتفع غطاء الإبريق، والصديقان يقطعان المسافة الزمنية بين برودة الحليب وحرارته بالحديث عن كل شجن.

وبين ظلامين. ظلام الحجرة. وظلام الدخان يفاجآن بازدياد الدخان، وتصاعده وخفوت لهب النار الذي انسكب الحليب الفائر إلىٰ قلبه فأطفأه كقلب عاشق التقىٰ بمن يحب بلا موعد.

ينتبه أبو صالح، ويقطع الحديث فجأة. ويسحب الإبريق من جوف النار. بلا واقي يحمي أصابعه من حرارة العروة لتتحول أصابعه إلىٰ قطعة من الكباب الحلبي المحترق. ولأنه تعود علىٰ تجرع المرارة التي تجود بها الأيام عليه كثيراً. فإنه لم يئن أو يتوجع بل واصل حديثه مع أبي علي،

ويده تمد إليه فنجان الحليب الذي أراق في جوفه كمية لا بأس بها من السكر.

أخذا يحتسيان الفنجان بالتعاقب. مرة لهذا ومرة لذاك حتىٰ سقطت غطاء الإبريق مغشياً عليها. كأم تلقت صدمة وفاة ابنها الوحيد.

ينتهي الحليب، ويخلو جوف الإبريق، وتنطفئ آخر جمرة من اللهب. وينقطع الحديث.

يخرج الشبحان إلىٰ الضوء في مجلس القرية لينضما إلىٰ حلقة الذاكرة التي تنعقد كل صباح حتىٰ صلاة الظهر.

وعندما يفترقان يتفقان علىٰ اللقاء صباح اليوم التالي. علىٰ المقايضة.

وتتكرر الحكاية كل يوم. حتىٰ كان ذات يوم حيث شعر أبو علي بأن طعم الحليب لا يختلف عن طعمه العادي الذي تجود به العنزة! إلا قليلاً.

سأل صديقه.. أبا صالح.. ما السر في ذلك؟

أخبره أن السكر علىٰ وشك النفاذ. لقد تلاشىٰ كأحلام

طالب فاشل يتمنىٰ الالتحاق بكلية الطب.

سكت أبو علي.. وأطرق مفكراً.

إذا كان السكر قد نفذ. فلماذا يطيل أبو صالح تحريك عود الغصن في جوف الإبريق. أكان يخدعه بأنه يحرك حبيبات السكر حتىٰ تذوب كغمامة سكبت ربقها علىٰ الأرض وتبخرت، ألم يعلم أن مذاق الحليب سيفضح هذه الحيلة.

لم ينبس ببنت شفه، وخرج بعد أن انتهت حفلة المقايضة، وقد قرر في نفسه إنهاء الصفقة فما زالت عنزه تجود بخيرها كل يوم.

في حين وضع أبو صالح كيس السكر الفارغ علىٰ رأسه واقياً عن المطر الذي لم يتوقف طيلة هذا الفصل، وإن كان يقوي ويضعف كأصابع موسيقي محترف تلعب بأوتار القانون.

في اليوم التالي.

صلىٰ أبو صالح الفجر وأشعل النار، وانتظر صديقه أبا

علي قادماً إليه حاملاً إناء الحليب كنادل في مطعم شرقي.

احترقت أعواد الحطب الهشة، وانطفأت النار، وأشعلها مرة أخرىٰ، ولم يأت صديقه، ودخلت عليه أشعة الشمس التي فتقت ملالة السحب من خلال ثقوب الباب، وما زال ينتظر، وحرارة الانتظار تحرقه، ودخان النار يخنقه كغريم أخذ بثوب معسر يطلبه نقوداً.

وعندما انطفأت النار للمرة الثانية. لم يطق صبراً فخرج إلىٰ مجلس القرية ليجد ابا علي جالساً في مكانه في الحلقة، وقد انحنىٰ برأسه إلىٰ المتعلم الوحيد في القرية ليستمع إليه، وهو يقرأ عليه رسالة ابنه التي وصلت مع القافلة وهو يبشره بأنه حصل علىٰ لؤلؤة تبرق كعيني أم فرحت بمولود جديد بعد شقاء استمر ستة شهور. كان نصيبه منه السدس لأن (النوخذا) أخذ الجزء الأكبر من قيمتها التي دفعها له الطواش الذي يلاحق الغواصين في البحر كالهموم التي تلاحق الفقراء لشراء ما يعثرون عليه.

لم يكترث أبو علي لحضور أبي صالح بل استمر في

الاستماع لرسالة ابنه، والقارئ يكررها كلما انتهت بعبارة (والسلام.. ختام) (وسلم لي على الوالدة والعنزة وكل عزيز لديك) الوحيد الذي لم تذكر الرسالة اسمه كان الحمار البائس. ربما لأنه كان يزعجه بنهيقه وهو نائم بحكم المجاورة.

لقد كان أبو علي يجد في الاستماع لتلك العبارات حلاوة تعوضه السكر الذي انتهىٰ من دار أبي صالح.

لم يطق أبو صالح صبراً، وسأل أبا علي لماذا لم تأت في موعدك. لقد كنت كالشمس لا تخلف ساعة الشروق والغروب فماذا حدث؟

رفع أبو علي رأسه وقال: لقد انتهت المقايضة ساشرب ماتبقىٰ من حليب العنزة مخلوطاً برحيق رسالة ابني.

أدرك أبو صالح السر. فأدار ظهره للجالسين، وذهب لمنزله. أخذ البندقية، وعاد لمزاولة مهنته القديمة التي حرمه المطر منها، وخرج إلىٰ البرية متعقباً قطعان الغزلان التي كانت تسرح وتمرح في مروج الربيع الخضراء.

لم يمض سوىٰ ساعة حتىٰ عاد يحمل علىٰ كتفه ظبيًا تسكب دماؤه علىٰ كتفه كبطل خارج للتو من المعركة ليبيع هذا الظبي علىٰ أحد الأغنياء بريال قرر أن يشتري به قليلاً من السكر. كي يعقد مع أبي علي مقايضة أخرىٰ حيث تستمر هذه اللعبة المرحة وحتىٰ يجف هذه المرة ضرع العنزة عن الإغداق، فيربط أبو صالح فم الكيس، ويغلق بابه ويصم أذنيه عن طرق أصابع أبي علي علىٰ خشباته التي أحرقها النمل الأبيض. فتكون واحدة بواحدة. ويكون المنتصر. لأنه كسب الجولة الأخيرة. ولأن أبا علي لم يجرؤ علىٰ ذبح عنزته وأن يصنع من جلدها صدرية تحميه من البرد. كما صنع من كيس السكر الفارغ لأول مرة.

لكن أبو علي. أضاع عليه تلك الفرصة الذهبية، وقتل شعلة الأمل في قلبه بسيف الإعراض. فهو يعلم أن النبع قد بدأ يجف لأن شمس الصيف الذي يأتي في هذه البلاد في منتصف الربيع يطرق قسمات وجهه بعنف الظالم.

نهض أبو علي من مجلسه تاركًا صديقه يقلب الريال

وينقله من كف إلىٰ كف. كطفل مغامر يلعب بجمرة، وسار في طريقه إلىٰ منزله، متأملاً رسالة ابنه وهي مقلوبة. العنوان إلىٰ أسفل. ليمضي إلىٰ امرأته. ويقرأ عليها الرسالة. من ذاكرته لا من سطورها. وأم علي تترك لدموعها العنان لتعبر عن فرحتها. التي تأمل أن تكبر كموج البحر الهائج حينما يطرق ابنها المنزل بلا سابق إنذار.

أما أبو صالح فاستمر في مجلسه علىٰ أمل أن يعقد مقايضة مع قادم جديد يخرج شبحه من أسواق القرية.

ولكن الانتظار طال حتىٰ مل نفسه. ولم يأت أحد. فلقد سمع الأهالي بتلك الحكاية، وفضل كل منهم ألا يخرج ما زاد من قوته من منزله إلا صدقة علىٰ فقير محتاج.

لقد وجدوا أن إعانة المحتاج أشد حلاوة. من السكر الذي سينتهي ذات يوم.

3 - طبيب القرية (1)

طبيب القرية (1)

الليلة دخل النجم الثاني من المربعانية: (ثلاجة البرد) وستكون تلك الليلة بداية فصل الشتاء وأطول ليلة فيه بعد أن رحل النجم الأول الذي يعده العامة من أيام الوسم. الذي يملأ نفوس الفلاحين بالتفاؤل بنزول الأمطار.

لكن أيامه الاثنين والخمسين رحلت ولن تعود إلا في موعدها من السنة القبلة. وكان حظ الأرض من أمطاره قليلاً. جعل النباتات الهزيلة تدخل دائرة الصراع مع الموت البطئ.

دخلت الليلة. أطول ليلة في العام، وكأنها جمعت زمهرير الشتاء في دقائقها وثوانيها التي تطحن عظام البسطاء والفقراء وآمالهم بلا توقف. لم يصدق ظن الناس بأن (السنة الدافية جافية) حيث توقعوا بأن شح الأمطار سيكون شحاً في البرد. بل إن هذه الليلة ساعدت البرد في الهجوم علىٰ أهالي القرية علىٰ حين غرة كذئب شرس لم يترك لفريسته فرصة للهرب.

والبيوت الطينية التي تسبح في بحيرة السراب الذي يحيط بها كالسوار في المعصم. لم تحم ساكنيها من هذا

الضيف الثقيل.

والجدران المتصدعة كفؤاد عاشق، والأبواب المليئة بالثقوب التي حفر عليها الزمن ذكرياته ورحل. تساعد هذا الضيف علىٰ التسلل كلص. ليسكن دماء النساء والشيوخ والأطفال. وعظامهم. ويسرق السعادة منها كحمىٰ المتنبي التي زارته بلا ضجيج رغم الزحام حين خاطبها قائلاً:

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

وبرودة الأرض التي زاد من عنفها امتصاصها الماء من حقول بستان النخيل المجاور لمنزل أبي محمد، وقلة الغذاء والكساء ساعدت في ملء عيون هذه الليلة الملتهبة بالزمهرير. بالرغبة في مضاعفة المعاناة.

لم ينم أبو محمد. ولم تنم زوجته الوفية. تجمع بجسمه في زاوية الحجرة الضيقة، كأحدب ابن الرومي الذي قال فيه:

وكأنما صفعت قفاه مرة فأحس ثانية لها فتجمعا

يزعجه عويل ابنه الذي يهز سكون الليل كمعاوية بن أبي سفيان حينما قال: (يزعجني صياح الديك في رودس).

أما الأم فتحاول منحه شيئاً من الدفء بضمه إلىٰ صدرها المسكون بالألم والخوف. وأن تربت علىٰ كتفه برأفة طائر الحمام علىٰ فراخه. فلعله يهدأ ويخلد للنوم. ولكن من أين يأتي هذا الهناء والداء يخرج من أعماقه.

رغم بطئه كشيخ مسن رحل الليل. وخرج أبو محمد لصلاة الفجر. وهو يتمتم في طريقه للمسجد بدعوته إلىٰ الله أن يحفظ له ابنه الوحيد.

عاد بعد أن أدىٰ الصلاة، وأمضىٰ وقتاً في المسجد تسبيحاً وتهليلاً ودعاء. وخيوط الشمس تنتشر علىٰ وجه الأرض بدفء هذا اليوم. الذي تأبىٰ العواصف الباردة أن تحني رأسها له.

عندما دخل المنزل أخذ ثلاث تمرات محشوة بالسوس وأكلها. واتبعها بقليل من الماء الذي كاد أن يصل إلىٰ مرحلة التجمد. وقال الحمد لله. وذهب للاطمئنان علىٰ ابنه الذي ضل النوم طريقه إلىٰ عينيه.

رأىٰ أن قطرات من الدم تختلط بالسعال الذي بلل

الثوب الممزق الخفيف الذي يلتحف به ولا يتدفأ وما زال منعقداً كخيط من قمة إلىٰ صدره كمعجون أسنان (فلورايد).

أصيب بالرعب من لون الدم الذي يميل إلىٰ السواد. والذي يسقط أحياناً علىٰ هيئة بقع سوداء كعملة قديمة طمرت في التراب طويلاً. لقد عرف مرض ابنه. إنه (الجنب) كما يقول العامة. ويسميه الطب الحديث التهاب الغشاء البلوري للرئة.

قال لزوجته. لابد من اختيار أهون الشرين.

لابد من الكي. لقد قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: (آخر الدواء الكي).

حاولت الأم أن تحبس هذه الرغبة التي تترد علىٰ لسان أبي محمد لأنها تحس أنها التي سوف تحترق بالنار التي تكتب آثارها علىٰ جسد ابنها الهزيل.

لم يستجب أبو محمد لدموعها التي تكاد أن تتجمد علىٰ خدها. كحبات الجمان.

لا مفر أمامه. إما الكي أو أن يموت ابنه.

خرج وأنفاسه تكاد أن تسبقه إلىٰ منزل الطبيب الوحيد في القرية الذي لا يجيد مع مهنة الكي سوىٰ الجوع والفقر.

طرق أبو محمد بابه بعنف كهارب من ملاحقة الشرطة، ورفع صوته منادياً الطبيب أن يخرج إليه.

سمع صوت امرأة الطبيب التي تجلس خلف الباب من الداخل يخبره إنه ذهب لعلاج ابن أبي ناصر..

لم يترك الوقت يسرقه. تولدت عنده القوة الكافية. فأسرع كفتىً لا شيخ مسن إلىٰ منزل أبي ناصر. وحين اقترب منه أحس برائحة اللحم المشوي.

لم ينتظر. سبقت رجله لسانه في الاستئذان فدخل ليجد الطبيب للتو قد رفع ميسمه عن الطفل العليل الذي تحول رأسه وجنباه إلىٰ مزرعة من الحروق.

لم يأبه لهذا المنظر الذي يجعل النوم يرحل عن عيني من رآه عاماً كاملاً.

أمسك بيده الطبيب بقوة، وأنهضه من مقعده لم يسمح له بأن يشرب فنجان الشاي الوحيد الذي أكرمه به أبو ناصر علىٰ

عمله الرائع. والذي لم يكن يمارس هواية احتسائه منذ ستة شهور.

لقد كان فصل الصيف بخيلاً لا يعطيه فرصة ممارسة مهنة الطب الوحيدة التي تجد قوتها في ليالي الشتاء. إن هذا الفصل صديقه الدائم الذي يطعمه لقمة العيش من بؤس الفقراء.

عاد أبو محمد إلىٰ منزله، ويده تمسك بيد الطبيب كأنه خصم له أمسكه بعد طول عناء.

وبسرعة أشعل النار. وأخرج الطبيب صيدليته وآلات الجراحة التي كانت منجلاً قد انمحت أسنانه بعد سنوات كان فيها يقص رقاب سنابل القمح بلا هوادة حتىٰ إذا أحاله صاحبه الفلاح للتقاعد. طلبه الطبيب للخدمة.

وضع الطبيب منجله بسرعة في النار التي أخذت تكبر حتىٰ احمر ثم ابيض من شدة الحرارة، ولم يفكر في حالة المريض، وهل مرضه مشابه لمرض سواه.

لم يكن يهمه اختلاف طبيعة الداء. لأن الدواء الموجود

في صيدلية القرية هو المنجل فقط.

أحضر أبو محمد ابنه المسكين الذي تحول لون وجهه إلىٰ ورقة شجرة خريفية. يسحبه ببطء ورجلاه تخطان في الأرض خطا لا ينقطع من العناء.

أنامه الطبيب علىٰ جنبه الأيسر، وأخذ يجس جانبه الأيمن بإبهامه كأسد ابن عمار. الذي قال فيه أبو الطيب:

يطأ الثرىٰ مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلاً

صرخ المريض المسكين من قوة ضغط إبهام الطبيب الذي أنغرس بين أضلاعه بقوة. وكأنه يحاول حبس ماء صنبور تعطل فجأة.

مد الطبيب يده اليسرىٰ إلىٰ جيبه. وأخرج قطعة فحم صغيرة كبقية ضرس رتع السوس فيه طويلاً. ورقم علىٰ موضع الألم شيئاً من سوادها علىٰ هيئة علامة الجمع الحسابية.

ثم استل المشرط. آسف. المنجل من النار، وقد ابيض كشعر رأسه، وأهوىٰ به بلا شفقة أو رحمة علىٰ العلامة

الداكنة.

كان يدرك أن مهنته، وفي مثل هذه الظروف يجب أن تبتعد عن مواطن الشفافية والرقة التي قد تزيد مساحة المقابر اتساعاً.

صرخ المريض البائس صرخة كادت أن تهد جدار المنزل الذي أوشك على الانهيار.

عبَّرت الأم عن ألمها ببحر من الدموع. وأرسل الحمار صوتاً مزعجاً تجاوباً مع تلك الصرخة التي صكت أذنيه بلا ترقب.

وذعر الديك الوحيد الذي كان لحظتها يبحث بمنقاره عن حبة قمح لن يجدها في منزل دق الفقر أطنابه في جدرانه.

بعد حين. هدأ المريض. أخذه نوم عميق. كغواص في بحيرة نائية لا موج فيها. لا يشاركه سكونها سوى طيور النوارس المهاجرة.

ونهض الطبيب ليخرج. لأنه لم يلمح إبريقاً على النار. يجعله يطيل البقاء على أمل أن يحصل على فنجان من الشاي

يعوضه عن فنجان أبي ناصر الذي قطع متعته معه في منتصف الطريق.

لكن أبو محمد لم يتركه يخرج خالي الجيب عند الباب. مد له البقية الباقية من حفنة التمر الشاحبة التي كان يمني نفسه أن تكون وجبة غدائه مع عائلته الصغيرة. وطوىٰ بطنه علىٰ الجوع. فهو لم يعد يفكر في أن يشبع. الأهم أن يخرج ابنه من دائرة الموت الذي يوشك أن ينشب مخالبه في براءته.

قبل أن يغادر الطبيب عتبة الباب قال لأبي محمد لا تنس أن ترطب أثر النار بشيء من الدهن لكي لا يتمزق الجرح وينزف.

هز أبو محمد رأسه موافقاً. وإن كان لا يملك هذا الترف.

عند مغيب الشمس. لم يشعل أبو محمد سراج الدنان لقد أخذ بقية الدهن المترسبة في جوفه ليرطب بها جرح ابنه المريض.

في صباح اليوم التالي كان وجه أبي محمد كغمامة

صيفية تشتعل بالصفاء. لقد نام ابنه البارحة، وأنام الجيران، ورحل السعال ليستقر في جوف مريض آخر. سيزوره الطبيب يوماً ما.

أما الأم. فكانت سعادتها باتساع الكون كله. وهي ترىٰ وحيدها يتجاوز عتبة الباب خارجاً، وكانت تُردد: صدق رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (آخر الدواء الكي).

4 - طبيب القرية (2)

4 - طبيب القرية (2)

عدا امرأته التي قطعت معه مشوار حياته، وسحابة شبابه. لا يوجد في منزله من يثير الضجيج الذي تأنس به نفسه. ضجيج الأطفال الذي شرب من نبع البراءة حتىٰ ارتوىٰ.

رزق بعدد من الأطفال. ولكن الموت كان يسرع إليهم. قبل أن يتجاوزوا الشهور الستة.

رضي وامرأته بقضاء الله وقدره. وأظلته سحابة من القناعة التي لم تفارقه حتىٰ قبره.

لذا لم يكن.. أبو فلاح ملحاً في البحث عن لقمة عيش لم يخلطها بعرق الجبين.

كل ما يملك بقرة. أعطاها جميع ما في جوانحه من عطف وحنان. كان يحلم أن يكون حقاً مشتركاً لأولاده لو عاشوا.

وهكذا كانت أم فلاح التي لم تبخل علىٰ بقرتها بشيء تعبر عن الحاجة إليه برغائها.

كان أبو فلاح يخرج مع مطلع الشمس كل صباح إلىٰ الحقول القريبة. مستأذناً أصحابها في أن يقوم بتجميع بعض الحشائش التي تنمو علىٰ سطح الأرض في شحوب أوجدته ندرة المطر. فهو لا يملك بستان نخيل كالآخرين. أو جزءاً من نخلة يشاركه فيها سواه.

كان يرىٰ نفسه غنياً. لأن هذه البقرة. كانت قطاعاً خاصاً به. وكان يرىٰ أنها (مستودع الغذاء) حيث تمنحه اللبن والحليب والدهن.

لم يكن الفلاحون يرفضون له طلباً بل ربما تنازلوا عن شيء هم بحاجة إليه إكراماً لهذا الرجل.

أنهم يرون له مكانة اجتماعية جديرة بالأغنياء. لم يصنعها بجاهه أو سوطه أو سطوة ماله. أو علمه.

لقد صنع مجده وارتقىٰ عرش قلوب سكان القرية. لأنه يضع في جيبه دائماً آلة حديدية أنقذهم بها كثيراً من الألم الذي يحرمهم لذة الراحة أياماً طويلة كليالي الشتاء، وإن كانت تلك الآلة سبباً في زيادة بقائهم في لهيب الألم أحياناً.

لقد كان طبيب الأسنان يذهب أحياناً ليحضر قوت البقرة. فيؤدي مهمته كطبيب وهو في طريقة للمهمة الأولىٰ. لم يكن بحاجة إلىٰ مستشفىٰ وغرفة للعمليات. لقد كان الشارع هو كل هذا.

هذا ما حدث له ذات يوم عندما رأىٰ أحد الأهالي مستنداً إلىٰ الجدار في إحدىٰ الطرقات التي يسلكها، وحالته تنبئ عن قلق يعصف به، وألم أحرق ما بقىٰ في يده من خيوط السعادة.

نظر إليه. واستطاع أن يعرف من هو رغم أن قسمات وجهه التي يعتصرها العذاب الذي يعيشه لا تعطي الفرصة لأحد أن يستدل عليه. خاصة وأنه يجلس في طريق تكاد أن تتحول إلىٰ قطعة من الليل. رغم أن الشمس لم تزل في منتصف النهار.

لقد كان أبو عامر أحد كبار تجار التمر والقمح في القرية. يأخذهما من الفلاحين بثمن بخس وفاء لديون متراكمة علىٰ أكتافهم دفعتهم الحاجة والرغبة في الإحساس بمواصلة رحلة

الحياة الشاقة إليه ليذلهم بشروطه التعجيزية. ليقوم ببيعهما علىٰ البدو القادمين إلىٰ قرية بأثمان مرتفعة.

سأله أبو فلاح عن سبب ألمه مع أنه يدرك ذلك من واقع خبرته، ولكنه أراد أن تتلذذ أدنه بحديث أبي عامر النازف وهو يسرد علاقته بالألم.

لقد كان في فؤاده جرح غائر من هذا التاجر الطماع حينما رفض أن يبيعه قليلاً من التمر مع التأجيل لعدة أيام ليتدبر ثمن الشراء.

ومن إشاعة هذا التاجر أبو عامر التي تناقلتها الألسنة بأن أبا فلاح كان يغري الأطفال بأكل التمر. لا حباً بنموهم وصحتهم ولكن رغبة في أن ينخر السوس أسنانهم فتشتد الحاجة إليه.

لم ينتظر أبو فلاح جواباً منه رغم أن أبا عامر أخذ يشرح له عن حالته بحروف يقطع التشنج أعصابها. فلذة الاستمتاع حصلت.

طلب منه أن يلقي نظرة علىٰ أسنانه. فتح أبو عامر فمه

بصعوبة. ألقىٰ أبو فلاح نظرة سريعة علىٰ الأسنان التي سقط جزء كبير منها. وبقىٰ منها جزء متفرقاً. وكأن عمرا من الأحقاد يفصل بينهما ما عدا اثنين تربط بينهما صداقة حميمة.

أخذ أبو فلاح عوداً من الأرض ملوثاً بالتراب وأخذ ينقر به علىٰ أحد الأسنان حيث اشتد الألم، وأخذ أبو عامر يصرخ. هنا اتخذ أبو فلاح قراراً بضرورة خلع هذا الضرس لأن السوس ينخره من الداخل وإن كان ظاهرياً يلمع كقطعة من البَرَد أو الثلج..

حاول أبو عامر أن يرفض وطلب من أبي فلاح أن يبحث له عن طريقة للقضاء علىٰ الألم دون اللجوء لتلك الطريقة البشعة. لكن أبو فلاح قال له: (لا هم إلا هم العرس. ولا وجع إلا وجع الضرس..) وقال له أيضاً: (دوا الضرس قلعه).

اضطر أبو عامر للقبول برأي أبي فلاح رغم مرارته. وما ينتظره من عذاب عند بدء العملية. ولكنه آثر العذاب المؤقت علىٰ الدائم الذي لا يدري له نهاية.

قاده أبو فلاح إلىٰ طريق محدودب الوسط. كمن يقود شاة للمسلخ. وطلب منه أن يستلقىٰ علىٰ ظهره جاعلاً رأسه إلىٰ أعلىٰ. وأخرج الآلة الحديدية من جيبه الداخلي. وعقمها بطرف غترته الحمراء المتشبعة بالتراب والوسخ.

وضعها علىٰ الضرس الذي يؤلم أبا عامر وضغط بكلتا يديه. محاولاً خلعه إلا أنه لم يستجب.

انسجاماً مع نظرية الجاذبية سحب أبو عامر مريضه متراً. مترين. ثلاثة. عشرة. والضرس يرفض مغادرة مكانه الذي ألفه منذ سبعين عاماً.

لم يأبه أبو فلاح لصراخ أبي عامر الذي لا يليق بمقامه وبعمره، وجعل الناس ينفرون إليه زرافات ووحدانا لاعتقادهم أنه لا يصدر إلا ممن أصيب بفقد عزيز لديه.

كانت بحيرة الدماء تنزف من فمه وأبو فلاح الذي طوىٰ أكمامه حتىٰ ساعديه يستعد لجولة أخرىٰ مع الضرس اللعين.

طلب من الحاضرين مساعدته بدلاً من الاكتفاء بالمشاهدة. وهز الرؤوس وكأنهم يشاهدون مصرع قطة رخيصة.

استجاب لدعوته اثنان أحدهما قام بالضغط علىٰ كتفي أبي عامر ليثبت علىٰ الأرض وكأنه يستعد لإجراء عملية تنفس صناعي لغريق.

وأمسك الثاني برجليه لكي لا يحركهما، وكأنه مأمور سجن علىٰ الطريقة الشعبية.

وبدأ أبو فلاح الجزء الثاني مع المعركة. وفي كل مرة يصطاد الضرس المتمرد تفلت الآلة الحديدية حتىٰ يكاد أن يقع علىٰ قفاه.

واستمرت المحاولة مرة. مرتين. ثلاثًا. حتىٰ أرهق هذا الضرس وخارت قواه. واستجاب لقوة وصبر أبي فلاح فغادر مكانًا ألفه.

ووقع أبو فلاح علىٰ قفاه حتىٰ كان أن يغمي عليه. وكأنه أحد أكلة ديك دعبل الخزاعي[1].

نهض أبو فلاح، ولمس رأسه حيث أحس بأن الدم بلل

---

1 - قال دعبل في ديكه:

نهشوه فاقتلعت له أسنانهم ... وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

أصابعه من شدة السقوط. أخذ من الأرض تراباً ووضعه علىٰ موضع الجرح. ثم مد يده إلىٰ جيبه الداخلي، وأخرج صرة بها مسحوق من القهوة. والملح ووضعه مكان الضرس المخلوع ليساعد علىٰ تجفيف الدماء.

وأعطىٰ أبا عامر ما تبقىٰ لاستعماله كلما أحس بأن النزيف يرفض التوقف.

بعد أن سكن الألم عن أبي عامر سكوناً جزئياً. مد أبو فلاح يده مطالباً بأجرته.

أما التاجر فمد يده إلىٰ فمه. ليفاجأ أن أبا فلاح قد خلع الضرس السليم، وأبقىٰ علىٰ المعطوب.

لم يندم أبو فلاح علىٰ هذا الخطأ فكثيراً ما كان يقع منه.

ولكنه نظر إلىٰ أبي عامر نظرة توحي باستعداده للمغامرة مرة أخرىٰ. خاصة وأن الخطأ لن يتكرر. لأن الضرس بقىٰ وحيداً.

أقسم أبو عامر ألا يعود لمثلها. قائلاً:

.. سأجعله طعاماً للسوس حتىٰ يشبع..

5 - طبيب القرية (3)

طبيب القرية (3)

أدىٰ أبو هزاع صلاة العصر وخرج مسرعـًا حيث عقل جمله في أرض خالية جوار سور القرية القديم حيث جعله يقتات شجر العاقول المر الذي جناه له تحت ظل شجرة من الأثل تخفف عنه أهدابها شيئـًا من حرارة الشمس.

أطلق عقال جمله وضغط بعصاه علىٰ أعلىٰ وركه فنهض كمتظاهر مسته عصا بوليسية كهربائية، وأخذ بخطام الجمل وقاده عبر شوارع القرية الملتوية كالأفعىٰ حتىٰ أناخه أمام منزله.

لقد اختار هذه الساعة لأن الشمس ما زالت مرتفعة وبقىٰ علىٰ غروبها ما لا يقل عن ثلاث ساعات، ولذا فإن الفلاحين قد ذهبوا إلىٰ منازلهم للراحة وبعضهم ليتناول غداءه، في حين يؤخره بعضهم إلىٰ ما قبل الغروب.

كانت شوارع القرية خالية ولن يعيق مرور الجمل حركة الفلاحين وهم متجهين بمواشيهم إلىٰ الآبار.

عندما أناخ جمله أخذ يقوم بتجهيز أدوات الرحلة التي

ستبدأ بعد قليل. وضع الشداد علىٰ ظهر الجمل، ثم أوثق المحامل به علىٰ الجانبين، وفي مؤخرة الشداد علق قربتي ماء علىٰ كل جانب واحدة، كما علق قفة فيها بعض أدوات الطبخ البسيطة وحفنة من القهوة والشاي والسكر والتمر، كما تأكد من وجود الفأس لأنه سيكون البطل المنتظر الذي لا يستغنىٰ عنه.

بعد أن اطمأن علىٰ أن كل شيء علىٰ ما يرام دخل منزله حيث كانت امرأته في أقصىٰ الحجرة المظلمة، وقد وضعت وليدها علىٰ حجرها، أخذ إناء وصب فيه شيئاً من ماء القربة المعلقة علىٰ باب الحجرة كشاه مذبوحة.

أخذ يعب الماء لكي يوفر علىٰ نفسه بعد بداية الرحلة جرعة ماء هو بحاجة إليها، كان أبو هزاع يقطع شربه ليلقىٰ علىٰ امرأته نصائحه التي لا تتغير مع كل رحلة، لكنه في تلك المرة أكد علىٰ ضرورة الاهتمام بالضيف الجديد الذي لم يتعد عمره ستة شهور.

خرج أبو هزاع ليبدأ رحلته حيث أنهض جمله كما صنع

في المرة الأولىٰ يقوده، ويتبع الجادة التي يعرفها الحطابون جيداً سواء أكان ذلك نهاراً أم ليلاً.

كان يحمل عصاه بيده اليسرىٰ كما أنه تمنطق بسكين صغيرة في وسطه ورفع ثوبه إلىٰ حد الركبتين، أما القدمان فكانا قابعتان في نعلين من الجلد ليقيهما الحرارة والصوان.

اختار المشي لأن الوقت ما زال نهاراً ليريح جمله، ولآن الخوف من خشاش الأرض لم يحن وقته بعد.

عندما غربت الشمس كان قد تجاوز القرية بمقدار ساعتين. وإن لم يكن يعرف ذلك يقيناً لأنه لا يحمل ساعة في يده، بل اكتفىٰ لقياس الزمن بسؤال جاره في صلاة العصر الذي كان الوحيد الذي يحمل الساعة في جيبه.

أدىٰ أبو هزاع صلاة المغرب والعشاء جمعاً، في حين ربط جمله إلىٰ شجرة الطلح التي تقف شامخة قريبة منها ليتلذذ الجمل بمرارتها. وبعد أن أدىٰ صلاته ركب ظهر جمله وأمسك بخطامه في يده، هنا بدأ الحذر مما سوف تلقي به الأرض علىٰ ظهرها من عقارب وحيات ستخرج من

جحورها بعد أن حولتها حرارة الجو إلىٰ بقعة من جهنم.

خاف أبو هزاع من أن يدب التعب والإرهاق بالجمل فأخذ يحدوه بغناء بعض الأبيات الشعبية التي جعلت الجمل ينشط في مسيره وكأنه مركب تهزه ريح خفيفة.

استمر في مسيره حتىٰ منتصف الليل حيث وصل إلىٰ المكان الذي سيقيم فيه لمدة يومين لقطع الأحطاب.

أناخ جمله وعقله وترك كل شيء علىٰ ظهره، أما هو فقد استلقىٰ علىٰ ظهر الرمل البارد ليرتاح قبل بزوغ الفجر.

لم يكن يعرف الوقت بالضبط ولكن مرآىٰ الثريا وهي تتلألأ في كبد السماء كعنقود عنب بلوري أوحىٰ له بذلك.

أخذته إغفاءة تحولت إلىٰ نوم استمر ثلاث ساعات حتىٰ حانت صلاة الفجر التي أداها. ثم قام بقيادة جمله إلىٰ شجرة قريبة وأنزل ما علىٰ ظهره ووضعه تحت جذعها وعلق القربة في أحد الأغصان المتدلية، ثم استخرج قربة صغيرة من جوف القفة وملأها من القربة المعلقة.

أشعل ناراً وصنع لنفسه إبريقاً من الشاي الذي أخذ

يغمس فيه قطع من القرص الشعبي الذي زودته به امرأته.

قيد يدي جمله علىٰ بعضهما وكذلك رجليه بطريقة تسمح له بقليل من الحركة ثم تركه يهيم في الروضة المقابلة ليرعىٰ.

أما هو فابتلعه الرمل الأحمر، لقد دخل إلىٰ عمقه بحثاً عن الحطب وحينما قطع الشجرة الأولىٰ تركها ثم انتقل لأخرىٰ يقطعها ويحملها إلىٰ مكان الأولىٰ الذي أصبح مكاناً للتجميع، وهكذا دواليك حتىٰ المساء. حيث عاد إلىٰ مقر إقامته تحت شجرة الطلح فأشعل ناره وصنع عشاءه من السويق واكله، ثم نام بعد أن صلىٰ العشاء، ليعاود البرنامج لليوم التالي علىٰ التوالي بنفس الوتيرة.

في فجر اليوم الثالث قاد جمله إلىٰ داخل النفود، إلىٰ مكان تجميع الحطب حيث قام بشده علىٰ هيئة حزم صغيرة ووضعها علىٰ شداد الجمل والمحامل المشدودة علىٰ الجانبين كهلال مقلوب وعاد لأخذ أمتعته وربطها علىٰ حمل الحطب، وعاد إلىٰ قريته ماشياً وهو يقود جمله. وشعوره

بالانتصار علىٰ الظروف المناخية يجعل طعم العرق المنزلق من جبهته إلىٰ شفتيه شهداً، ويزيد من حلاوته إحساسه باللقاء المرتقب بابنه الذي لم يره منذ ثلاثة أيام.

قبل العصر بقليل كان ينيخ جمله في مكانه المعهود تحت سور القرية وأنزل عنه أحماله وقيده. ثم اتجه إلىٰ منزله حاملاً قفته وقربتي الماء بعد أن أفرغهما في حوض صخري عند مربط الجمل.

دخل منزله ووجد امرأته تنتظره وكأنها معه علىٰ موعد، سألها عن طفله الصغير فأخبرته بأنه بخير.

قدمت له طعام الغداء المكون من الأرز المطبوخ بالماء والملح فقط، لم يكن مطبوخاً للتو، وإنما كان بقية غداء الأمس أعيد تسخينه.

أكل ما تيسر منه وعلق ما بقىٰ منه في العرزالة وخرج لصلاة العصر.

بعد الصلاة التحق بحلقة أصدقائه في مجلس القرية تحت سور المسجد الشرقي، وأخذ يقص عليهم خبر رحلته

التي لم يكن فيها جديد لأنه لم يكن معه رفيق ليصنع الأحداث معه سوىٰ الصمت.

حانت منه التفاته ليرىٰ جاره قادماً إليه تكاد تنقطع أنفاسه وعلىٰ قسمات وجهه خوف من شيء ما، فهو لم يعهد ذلك الجار إلا مبتسماً قبل ذلك.

انحنىٰ عليه جاره قائلاً أسرع أسرع، ولم يعطه الفرصة ليسأله بل تابع قائلاً عائلتك توشك علىٰ الموت، لقد أخبرتني بذلك زوجتي التي دخلت لزيارتها فوجدت امرأتك ووليدها ممدين علىٰ الأرض في حالة إغماء.

نهض الرجل مسرعاً إلىٰ منزله لم يعلم أنه نسي حذاءه إلا حينما أدمت شوكة إبهامه وهو علىٰ مدخل الدار، دفع الباب بعنف واتجه للحجرة الوحيدة في المنزل ليرىٰ امرأته ولا رابط يربطها بالدنيا سوىٰ حشاشة روح تتردد في صدرها في ضعف واضح، وابنها علىٰ صدرها يكاد الموت أن يشد خناقه كما وجد الإناء الذي تناول بعضاً مما فيه علىٰ الأرض ورائحة الطعام تنبعث من يد المرأة.

خرج مسرعـاً لا يلوي علىٰ شيء ولـم يشعر بجاره الـذي تبعه وهو يصيح إلىٰ أين إلىٰ أين؟ فلم يرد عليه.

ذهب علىٰ حيث يسكن أبو عبد الرحمن أحد سكان الحي الذي يعرف شيئاً من الطب الشعبي عدا الكي، ولما هم بأن يطرق عليه بابه إذا به يسأله ماذا تريد يا أبا هزاع، كان جالسا علىٰ العتبة ولكن المسكين أبو هزاع لم يره لقد أنساه ما يعانيه كل شيء حتىٰ اسمه،

قال له وأنفاسه تكاد تسابق كلماته ابني. امرأتي.

وشرح القصة. فقال أبو عبد الرحمن: لقد تسلل الوزغ إلىٰ الطعام ملتصقاً بالحبل الذي يربط العرزانة بالسقف حيث أفرغ السم ومضىٰ إلىٰ حال سبيله.

لم يعلم أبو عبد الرحمن أن التسمم ربما كان بسبب شدة الحرارة خاصة وأن هذا الأكل كان بقية الأمس.

ولم يدرك أن الأجسام تختلف في التأثر بالتسمم هذا فيحس هذا، ولا يشعر ذاك بشيء.

المهم أن أبا عبدالرحمن قال هيا لنذهب لفلان، فآخر

علمي أن قرن الخرتيت موجود لديه.

كان لقرن الخرتيت مكانه عظيمة عند سكان القرية، لندرته ولدوره في علاج التسمم، أنهم يتبعون حركته من منزل إلىٰ أخر ويتحرون أخباره كأنه فرس أصيلة.

أمسك أبو عبدالرحمن بيد أبي هزاع ذاهباً به للشخص الذي استقر القرن عنده.

عندما فتح لهما الباب سألاه. قال لهما: إنه عند فلان، وهكذا كلما ذهبا إلىٰ شخص أرسلهما إلىٰ آخر.

لقد كان هذا الدواء العجيب أشبه بالروماتيزم المزمن في تنقله من عضو إلىٰ عضو.

أخيراً وجداه عند رجل أعمىٰ كان قد استقر عنده، أخذاه منه، كان علىٰ هيئة قوس ربابة من كثرة الاستعمال. دقيقاً كأنه فقير مصاب بداء السل لمنزل أبي هزاع حيث أخرج سكيناً حادة تلتقط الحب كما يقول العامة، لا يخرجها عادة إلا مرة في العام في عيد الأضحىٰ فقط.

أخذ أبو عبد الرحمن السكين وأخذ يحك بطن قرن

الخرتيت بقوة، إنه يحتاج لشيء من قشوره التي أو شكت علىٰ الانتهاء بسبب كثرة الاستعمال.

كان غبار القشور وإن كان قليلاً يسقط علىٰ قطعة قماش حمراء متسخة وضعها أبو عبد الرحمن مفروشة علىٰ ركبتيه لكي تميز اللون الأبيض للقشور التي أخذت تتساقط كقشرة رأس بدوي لم يعرف الاستحمام منذ ولد.

خرجا بحصيلة ليست بالجيدة ولا الهزيلة، هنا أحضر أبو هزاع إناء به ماء قليل وضع فيه أبو عبد الرحمن القشور التي جمعها في كفه، وأخذ يحركها بعود من الحطب.

أخذ أبو هزاع الإناء وذهب مسرعاً لامرأته التي كانت علىٰ حالتها منذ أن غادرها منذ ساعة، قام بصب قليل من الماء في فمها، ولم تمض ثوان إلا وقد دبت الحياة في شرايينها وفتحت عينيها كمن خرج من سبات عميق لم تكن تلك هي المفاجأة، بل كانت في الطفل الذي ما زال ممسكاً بثدي أمه بشفتيه، لقد انتقلت إليه عدوىٰ الإفاقة المفاجئة التي سرت إليه كبرق سحابة شتوية.

كان أبو عبد الرحمن ينتظر النتيجة التي يعلم بحكم خبرته أنها لن تتأخر عادة، ولكن ما يزعجه أن تكون قشور القرن قد فقدت تأثيرها السريع في مثل تلك الحالة، نظراً لأن هذا القرن العجيب قد أمضىٰ أكثر من عشر سنوات وهو ينتقل من منزل إلىٰ منزل كابن بطوطة.

بعد لحظات خرج أبو هزاع والابتسامة تغمر محياه كعشبه برية أرواها المطر بعد طول انقطاع.

عرف أبو عبد الرحمن النتيجة فاتجه لأبي هزاع قائلاً وهو يهم بالخروج: مسؤوليتك كبيرة. لا تفرط في هذا الدواء النادر.

6 - العجوز المحتالة

6 - العجوز المحتالة

نحن في نهاية منتصف الربيع الآن أو ما يسميه العامة.. ثريا الصيف.

في فجر ذلك اليوم نزل (أبو نادر) من سطح بيته الطيني في مزرعته التي تبعد عن القرية قليلاً بعد أن أدى صلاة الصبح ليتجول بين الحقول التي تنتشر بين جانبيها زراعة الصيف وتمتد حقولها متوازية بعضها جوار بعض كالأسطر.

أخذ يعدل من سيقان شجيرات البطيخ التي بعثرتها العاصفة التي هبت ليلاً فخلطت هذه مع تلك حتى أصبحت كخيوط العنكبوت.

كان أبو نادر يمني نفسه بموسم زراعي جيد لا يعطيه ربحًا بمقدار ما يمنحه دخلاً يصرفه على مجابهة متطلبات مزرعته دون الحاجة للاستدانة من الآخرين.

غمرته ابتسامة لم تزر شفتيه منذ سنوات، فالحقول الخضراء الممتدة كالأقلام على وجه الأرض تحدثه بأن أمنيته على وشك الوقوع هذا العام.

في الجهة الأخرىٰ كانت هناك عجوز بدوية أمضت عدة سنوات وهي لا تتجاوز في تنقلاتها محيط القرية أو الرياض القريبة منها.

شعرت تلك العجوز بأن حرارة الشمس بدأت ترتفع، وجف نبات الربيع، ومياه الغدران التي تجمعت في المنخفضات بعد أمطار بداية هذا الفصل المنعش.

رأت ألاّ بد من أن تنتقل من مكان إقامتها علىٰ طرف تلك الروضة، وأن تقترب من أسوار القرية أكثر فأكثر لكي تسقي أغنامها قليلة العدد من مياه الآبار الجوفية التي قام ملاكها من الفلاحين ببناء برك صغيرة لمثل هذه الظروف.

طوت خيمتها الممزقة كأحلام الفقير، ووضعتها علىٰ ظهر حمارها الأسود، وعلقت بقية أثاثها البسيط عليه، واقتادته متجهة للقرية، والأغنام من خلفها لا تعصي لها أمراً تملأ الجو بثغائها.

استقرت هذه العجوز جوار أشجار من الأثل تلتف علىٰ هيئة حدوة حصان علىٰ مقربة من مزرعة أبي نادر.

كم كانت ترغب لو سمح لها هذا الفلاح الطيب بأن تنزل داخل مزرعته لكنه رفض خوفاً من أن ترتع أغنامها في حقوله الخضراء التي يعتبرها رأس ماله كله، ولكنه أعطاها الإذن في أن تسقي أغنامها من الحوض الصغير التي مدت إليه ماسورة براد الماكينة.

ذات يوم وقبل غروب الشمس كانت البدوية تسقي أغنامها فإذا بها تلمح أبا نادر مقبلاً عليها، وعندما توقف قريباً منها سألته عن حال مزرعته هذه الأيام، ولعل موسمها سيكون أفضل من العام الماضي. وبلسان الواثق أخبرها ونفسه تشعر بتفاؤل لا نهاية له بأن كل شيء علىٰ ما يرام، وأنه سيبدأ غداً بجلب بواكير إنتاجها إلىٰ سوق القرية. ولكي يؤكد لها ذلك أهداها بطيخة من سلسلة الخير التي ستنتظم صيفاً كاملاً.

عندما وصلت العجوز إلىٰ خيمتها قامت بتقطيع تلك البطيخة بسكينها الصدئة التي رافقت عمرها أكثر من خمسين عاماً، وتذوقتها فإذا بها تحس أنها تلعق قطعة من العسل

الطبيعي لم تعرف طعمه منذ ولدت.

سألت نفسها هل سيكون لها موعد مع تلك الهدية كل مساء؟

عادت في اليوم التالي في نفس الموعد. ولم يأت الفلاح أبو نادر، فعادت إلىٰ خيمة البؤس، وفي حلقها شيء من مرارة الحنظل. وقررت في نفسها شيئاً. ألا تنتظر هذه الهدية التي قد تأتي وقد لا.

أخذت تفكر في حيلة تستطيع بها أن تكون شريكاً في محصول المزرعة اليومي ذلك بدون أي عناء. أخذت تنكث الرمل بعود من الحنظل، وكأنها امرؤ القيس عندما رحلت عنه حبيبته، وترسم خطوطاً متقاطعة الاتجاهات ولم تكن هناك ريح لتمحوها كما صنعت تلك الرياح مع ذكريات مجنون ليلىٰ.

هداها تفكيرها إلىٰ الحل. قامت بمحو خطوطها التي رسمتها علىٰ الأرض، وكأنها قائد معركة يخشىٰ أن يسرق أحد أفكاره التي خطها علىٰ الرمل حتىٰ لو كانت الريح،

وذهبت لجلب أغنامها.

في الصباح الباكر وقبل بزوغ نور الشمس أخذت أغنامها، ووضعتها في أحد بساتين النخيل التي هجرها أصحابها. أما هي فذهبت لتختفي خلف فتحة في سور الطين الذي يحيط بالقرية. كانت تعرف أن أبا نادر سيمر من تحتها بحماره الذي يحمل إنتاج المزرعة اليومي إلىٰ سوق القرية. فلقد رأته أمس يسلك هذا الطريق حاملاً أوائل الإنتاج كما أخبرها علىٰ ظهر حماره الأشهب.

بعد بزوغ الشمس بقليل لم تكذب عيناها، وهي تشاهد الشبح الأسود القادم من بعيد، وتتضح رؤيته أكثر فأكثر، لقد كان أبو نادر، القادم من بعيد، وتتضح رؤيته أكثر فأكثر، لقد كان أبو نادر، حتىٰ وصل إلىٰ فتحة السور، وبمجرد أن دخل الحمار من الفتحة إذا بها تهجم بطريقة مفزعة، وقد اتشحت بالسواد حتىٰ لكأنها جنيه خرجت توا من بين طيات طين السور وتصرخ قائلة: بالخير يا (أبو نادر).

أصيب حمار الفلاح بذهول المفاجأة، واستولىٰ عليه

الرعب من هذا الصوت الذي أصم أذنيه فأطلق قوائمه تسابق الريح وحبات البطيخ تتساقط ذات اليمين وذات الشمال، وقد تحولت إلىٰ شظايا علىٰ الصوان الأملس الذي يفترش الطريق.

انشغل أبو نادر بحماره الذي ركض خلفه محاولاً الإمساك به وهو يسابقه في الطرق الزراعية الضيقة التي تفصل بين بساتين النخيل. والحمار يرفض أن يتوقف بل أطلق لصوته المنكر العنان وكأنه يريد أن يشعر الناس بما يمر به.

أما العجوز فانشغلت بتجميع هذه الثمار وحملتها عائدة إلىٰ خيمتها لتأكل منها، وتطعم أغنامها.

وهكذا استمرت تلك الملحمة يومان، ثلاثة، أسبوعيًا، وأبو نادر يفقد ثمار مزرعته كل يوم ويمضي سحابة يومه ركضًا وراء حماره الذي يكاد أ، يصاب بالجنون. ولكنه لطيبة خاطره وسلامة نيته لم يدر في خلده أن ما يحدث يوميًا حيلة مدبرة.

ولأن كل جريمة لابد فيها من كعب أخيل ولابد أن

تنكشف مهما أحكمت حلقاتها، فقد انكشفت هذه الحيلة الجهنمية بطريقة لم تتوقعها تلك العجوز الماكرة. ومن قبل شريك الفلاح أبي محمد لا أبي نادر نفسه.

حدث هذا حينما تعطلت ماكينة (بلاكستون) التي ترفع الماء من البئر، وأحس بذلك أبو محمد حينما لم يسمع صوت الشكمان الذي يصم أذنيه بدقاته العالية التي زاد من ارتفاعها أن وضع علىٰ ماسورة الدخان علبة حديدية فارغة مقلوبة لترد الصوت إلىٰ أسفل. رغم أنه يسكن بعيداً عن المزرعة بأن عطلاً قد حدث، لذا لم يتأخر في الذهاب إلىٰ المزرعة ليجد الماكينة معطلة، وبحاجة إلىٰ مهندس ليقوم بإصلاح العطل كما يعتقد.

أمضىٰ ليلته في المزرعة، وطلب من أبي نادر ألا ينزل بالإنتاج للقرية بل عليه أن ينتظره حتىٰ يذهب لإحضار المهندس.

ذهب أبو محمد وطلب من المهندس الوحيد في القرية الذي اكتسب مهارته في العمل بالممارسة لا بالدراسة

الخروج للمزرعة لإصلاح الماكينة لكنه رفض إلا إذا حصل علىٰ أجرته مقدماً لأنه يعرف أن ظروف الفلاحين المالية لا تسمح له بتأجيل عرق جبينه.

لم يكن مع أبي محمد نقوداً فذهب للدلال الذي يقوم عادة بالحراج علىٰ ما يجلبه الفلاحون كل صباح.

طلب أبو محمد منه أن يعطيه شيئاً من ثمن ثمار البطيخ التي يحضرها شريكه أبو نادر كل يوم إليه. قال الدلال: لا يوجد لكم لدىٰ مال. فقال أبو محمد كيف يحدث هذا؟ وأين ثمن ما كنت تبيعه لنا كل يوم. إننا لم نقبض شيئاً حتىٰ الآن.

قال الدلاّل: ولكنني لم أبع لك حتىٰ ثمرة بطيخ واحدة.

فقال أبو محمد: وكيف تقول هذا، ولا يوجد في القرية بائع سواك، وأرىٰ شريكي كل يوم يحمل إنتاج المزرعة علىٰ حماره كل صباح إليك.

فقال الدلاّل: هذا ما لدي لا يوجد عندي شيء، ولم أبع لكم شيئاً. وكادت الأيدي أن تشتبك، وأن تحدث معركة لولا أن تدخل بعض العقلاء وأكدوا صدق الدلال لأنهم

يجلسون عند دكانه كل يوم منذ صلاة الفجر، ولم يروا أبا نادر يجلب شيئاً.

أصيب أبو محمد بخيبة أمل. إن الماكينة معطلة، والخضرة سوف تموت من العطش، وليس لديه نقود، والأعظم أنه لا يدري أين يذهب الإنتاج اليومي.

وعاد للمهندس، وشرح له القصة، واسترحمه أن يقدر له الظروف الصعبة التي يمر بها، وتعهد له أن يعطيه الأجرة مضاعفة بعد حين، واستجاب المهندس، وركب سيارته الخردة واتجه للمزرعة.

أما أبو محمد فجلس في ظل أحد الدكاكين المهجورة يفكر أين يذهب إنتاج المزرعة. هل كان شريكه أبو نادر يخون الثقة والأمانة ويبيع هذه الأشياء لنفسه.

لا. لا. لا. هكذا قال أبو محمد يعرف شريكه أبا نادر منذ عشرات السنين له قلب صاف كماء الغمامة صادق كالفجر لا يعرف الكذب إليه طريقاً.

ولكنه قال: ولكن الأيام قد تغير الإنسان، وقرر أن يشك

في كل ما حوله حتىٰ شريكه حتىٰ يحل اللغز. فكيف يصنع؟

قطع صوت سيارة المهندس العائدة من المزرعة حبل التفكير الذي امتد لأكثر من ساعة.

توقف المهندس، ومعه أبو نادر عنده وأخبره بأن كل شيء علىٰ ما يرام. لقد تم إصلاح العطل الذي لم يكن ولله الحمد في (الطلمبة)، وإلا لا ستوجب ذلك رفع جميع المواسير الذي سيستغرق أياماً ستكون كافية لإعطاش الخضرة.

قال له: في الليل ستسمع صوت الماكينة مدوياً يشق أستار الليل. أما في النهار فضجيج القرية يمنع من وصول ذاك الصوت إليك.

ابتسم في هدوء، ولكنه ظل مفكراً كيف يحل لغز اختفاء الإنتاج.

بعد صلاة الظهر اتجه إلىٰ منزل أبي نادر الذي يقع قريباً منه. وطرق الباب عليه. لقد كان يعرف أنه لم يخرج للمزرعة منذ أن عاد مع المهندس لأنه لمحه في المسجد منذ قليل.

فتح أبو نادر الباب، ورحب بأبي محمد قائلاً ماذا أتىٰ بك؟

فقال لا شيء، وجدت وقتاً وأنت في القرية فقلت أن الأفضل أن أمضىٰ هذا الوقت معك لاستمع منك إلىٰ قصة إصلاح الماكينة.

قال أبو نادر، ولكنك تعرف أن الحديث لا يحسن إلا علىٰ إبريق من الشاي، ولا شيء في المنزل فأنا قد نقلت أدوات القهوة للمزرعة قبل أن أذهب بعائلتي إلىٰ أهلها.

فقال أبو محمد: أذهب وأحضر أدوات الشاي من منزلي. فقال أبو نادر: ولماذا لا تذهب إلىٰ منزلك (نقل الضرس ولا نقل عليه)؟ قال له أبو محمد: لا. لقد مضىٰ وقت طويل لم أدخل منزلك فلماذا تحرمني هذه المتعة. ثم أن منزلك أكثر قرباً من بساتين النخيل وأكثر برودة في زمن الصيف.

هز أبو نادر رأسه موافقاً وهب وخرج ليحضر أدوات الشاي من منزل أبي محمد.

كان هذا ما يريده ليجد فرصته في البحث عن الخضار الضائعة في إحدىٰ غرف المنزل المظلمة.

لقد دعاه سوء ظنه إلىٰ الاعتقاد بأن أبا نادر يقوم بقطف ثمار البطيخ قبل الاستواء، ويحضرها إلىٰ منزله ليدفنها في التبن "سيقان القمح" بعد درسها حتىٰ تنضج بسبب الحرارة حتىٰ يجد فرصته لبيعها.

هكذا ظن، ولذا قام بتقليب جميع الأحواض المصنوعة من جذوع النخيل الموجودة في الحجرة المظلمة التي تستعمل ملجأ للبقرة في زمن الشتاء. ولم يجد شيئاً.

وهنا أدركه الندم علىٰ إساءة الظن بشريكه، ولكن ما يخفف من وطأة الندم أنه لم يبح بشكه لأي مخلوق. لقد كتم سره.

بعد قليل عاد أبو نادر حاملاً أدوات القهوة، وما هي إلا لحظات حتىٰ صنع شاياً كدم الغزال سكب منه قليلاً في فنجان زجاجي مذهب لأبي محمد الذي أخذه، ولكنه لم يشأ أن يستمع من شريكه إلىٰ قصة إصلاح الماكينة التي لم يكن

بها خلل سوىٰ انتهاء الديزل من الخزان.

لقد كان مشغولاً بالبحث عن السر الغامض في اختفاء الخضرة بعد أن فشل استنتاجه الأول.

وفجأة سأله أبو نادر بماذا تفكر؟ ولما أنت ساهم النظرات؟

لم يجبه أبو محمد بل ارتشف فنجانه تاركـًا الجواب الذي تسببه له هذه الأسئلة، ولأنه يريد أن لا يعرف أبو نادر سر انشغاله وقلقه فتقع القطيعة.

كل ما قاله عند خروجه من الباب إنه سينام الليلة في المزرعة وهذا ما حدث فعلاً.

فقبل غروب الشمس كان أبو محمد مع شريكه أبي نادر في المزرعة.

ولم يلبث إلا قليلاً حتىٰ جاءت العجوز المحتالة لتسقي غنمها، وفي محاولة لمعرفة السر الذي منعها من الحصول علىٰ وجبه دسمة من فاكهة البطيخ لها ولأغنامها هذا اليوم.

لفت حضورها نظر أبي محمد وسأل: من هذه المرأة؟

من هي؟ فقال: إنها بدوية مسكينة تسكن في خيمة ممزقة علىٰ مقربة منه، وتأتي كلما أوشكت الشمس علىٰ الغروب للسقي.

لم يعد أبو محمد سؤاله، ولكنه أحسن بفطنته وذكائه أن وراء حضور هذه المرأة سراً. قد يكون له دوراً في اختفاء المحصول الزراعي.

أمضىٰ أبو محمد الليل ساهراً يراقب المزرعة فربما أن هناك لص يأتي ليلاً ليسرق الثمار الناضجة مستغلاً النوم المبكر لأبي نادر بعد تعب النهار، ولكن الليل مضىٰ، وحانت صلاة الفجر، ولم يأت اللص المنتظر.

بعد الصلاة ذهب أبو محمد ليرتاح قليلاً، ويغفو هنيهة بعد هذا السهر الطويل الذي لم يكن له مبرر، وانصرف أبو نادر لقطف المحصول تمهيداً للذهاب للقرية.

قال أبو محمد لأبي نادر: إذا انتهيت من وضع الأحمال علىٰ الحمار فأيقظني سأقوم بهذه المهمة بدلاً منك. لقد شقيت في الأيام السابقة ولابد أن ترتاح.

لقد كان يسعىٰ من وراء هذا أن يكتشف السر الضائع

الذي ارقه طوال يومين.

عندما أكمل أبو نادر عمله أيقظ أبا محمد الذي قام مسرعاً وشد حبلاً من الليف علىٰ وسطه، وأمسك بعصا الخيزران وسار خلف حماره الذي يعرف طريقه جيداً.

كانت العجوز قد أخذت مكانها كما كانت تصنع في الأيام السابقة حينما رأت الشبح يلوح من بعيد ممزقاً إهاب ما تبقىٰ من الظلام كضيف الحطيئة. خفق قلبها بالفرح. فانتظارها لم يذهب سدىٰ كما حدث بالأمس.

لكنها لم تكن تعلم أن سائق الحمار هذه المرة لم يكن سائقه السابق.

وما أن انتهىٰ الحمار إلىٰ فتحة السور، وكاد أن يتجاوزها حتىٰ صرخت فيه بعبارتها المألوفة: (بالخير يا أبو نادر)، بلهجتها البدوية. لم تعلم أنه أبو محمد.

أطلق الحمار حوافره ليسابق الريح مذعوراً، والثمار تتساقط ذات اليمين وذات الشمال كالقنابل التي تسقطها الطائرات المغيرة.

ووقف أبو محمد مذهولاً لقد عرف السر، إنه يختبئ تحت دهاء هذه العجوز الماكرة.

لم يصنع كما صنع أبو نادر فيلحق بحماره ليترك تعب عمره من نصيب هذه العجوز وأغنامها.

أما العجوز فبدأت مهمتها في جمع الثمار الصريعة معتقدة أن أبا نادر قد لحق بحماره. لقد غطىٰ الغبار المتطاير عينيها من اكتشاف الحقيقة.

ولم تكن تعلم بوجود أبي محمد بقربها إلا بعد أن سمعت صوته الجهوري يردد: هكذا يا عجوز... وسكت.

ثم قال لن تأخذي من جهدي شيئاً حتىٰ لو تركته للثعالب والغربان.

انصرفت العجوز الماكرة وهي تلوم نفسها لماذا فاتها أن تعرف سر حضور أبي محمد البارحة للنوم في المزرعة وهو لم يفعلها من قبل. كان يجب عليها أن تفكر في هذا.

لكن الندم لا يجدي نفعاً. ولم تحاول أن تعاود تكرار ما حدث في الأيام الماضية لأن الحيلة ظهرت للعيان ولن يلدغ

مؤمن من جحر مرتين.

ذهبت تجرجر أذيال الخيبة بحثاً عن فلاح طيب القلب مثل أبي نادر لتعود حليمة إلىٰ عادتها القديمة. ولكن هل تجده؟

7 - يخلق من الشبه أربعين

7 - يخلق من الشبه أربعين

كانوا ثلاثة. رمتهم الأيام بعيداً عن قريتهم التي مازالت جيوبهم تحمل بقية ذرات من ترابها. إلىٰ قرية أخرىٰ تبعد عن مهوىٰ الفؤاد مسافة عشرين يوماً للجمل الذي كان وسيلتهم إلىٰ الهجرة طلباً للعيش.

انتقلوا من قرية كثيرة الماء والنخيل لا ينام فيها أنين السواقي ولا تقف الحركة عن إضافة حكايات كل يوم إلىٰ ملاحم الكفاح إلىٰ قرية أخرىٰ يطوقها الرمل الذهبي كالعقد في رقبة العذراء الجميلة.

لم تكن القرية التي أنجبتهم ترغب في هجرتهم، ولكن مواردها رغم غزارتها كانت أقل من أن تفي بمتطلبات تلك الوجوه السمر التي تحفر ذكرياتها علىٰ طرق القرية الملتوية.

كانت القرية كإناء ماء مملوء لا يحتمل هبوط قطرة واحدة وإلا لذهبت بعيداً.

كانت القاعدة. طفل يولد. شاب يهاجر. لم تكن دموع الأم، ومسحة الحزن علىٰ وجه الأب لتمنع القدم عن

الرحيل، فالحياة قاسية، ولابد من التضحية.

في تلك القرية التي كانت حياتهم الجديدة، استأجروا غرفة ضيقة كبيت العنكبوت، ووضعوا فيها الشنطة الحديدية الوحيدة التي تحمل ملابسهم، ولم تكن ملكاً لأحد، بل استعارها والد أحدهم من أحد جيرانه.

ببضع قروش اشتروا لهم بعض مستلزمات الطبخ، ولضيق المساحة جعلوا الفضاء السابح بالرمال الذهبية مطبخهم وفراشهم في ليالي الصيف.

كانت الحجرة للسكون في بهيم ليل الشتاء، أو قيلولة الصيف، حينما يستيقظون صباحاً. يجدون أن الباب يكاد يختفي تحت الرمال التي دفعتها رياح الخماسين إليهم لتزيد في معاناتهم.

مع ذلك زاد صبرهم بريقاً، فهم يعرفون أن الحياة تلفظ الشاب المترف. التحقوا بأعمال بسيطة جداً.

الأول التحق بشركة النفط، والثاني، والثالث فتحا متجراً صغيراً لبيع المواد التموينية القليلة برأس مال مستدان.

بحكم صغر القرية، وضيق أسواقها، وعدم وجود الوسيلة التي تبعد الوجوه عن بعضها، والالتقاء اليومي العابر بالناس ذهاباً وعودة، استطاع هؤلاء الشباب أن يقيموا علاقة اجتماعية مع كل الموجودين علىٰ هذه الرمال الذهبية.

لكن علاقتهم بالأمير كانت أقوىٰ واشد. فقد كان أميراً كريمـاً، ذا خلق نبيل، وابتسامته مشرقة، أضاع مفتاح بابه فلم يغلقه في وجه محتاج.

كانوا يلتقون عنده قبل غروب الشمس بقليل، وبعد صلاة العشاء ليحكي كل منهم أحداث يومه منذ أن أشرقت الشمس حتىٰ قادته رجلاه إلىٰ مجلس الأمير، أو أن يسمعوا خبراً جديداً عن قريتهم حمله مهاجر جديد، أو بريد.

تحسنت أحوالهم المادية قليلاً، اتفقوا علىٰ زيادة مساحة الحجرة لأنهم أصبحوا محطة توقف لمن يعرفهم قادمـاً من بلدتهم أو مسافراً إليهم،ولم يعد المكان يسع الضيوف الذي كثيراً ما يلجأون للنوم علىٰ الرمل صيفـاً، أو في المسجد الوحيد في القرية شتاء.

أضافوا حجرة صنعوا جدرانها وسقفها من الخشب، وهدموا الجدار الذي يفصلها عن الغرفة الأساسية. نقلوا جميع أمتعتهم للحجرة الجديدة. أما القديمة فجعلوها مطبخاً.

أقاموا حول مسكنهم حضيرة بالأخشاب تسمح لهم بوجود فناء داخلي للمنزل لا يعطي الناس فرصة للتطفل على أحداث يومهم اليومية.

كان المسافرون الذين يأتون إليهم بلا موعد، يفتحون باب المنزل الذي لم يكن يقفل لأن لا شيء فيه يستحق السرقة، ويضعون ملابسهم دون انتظار لمجيء أصحاب المنزل.

في أحد الأيام وعندما عادوا من أعمالهم، وجدوا لفافة خضراء فيها ملابس وبعض المستلزمات الشخصية، عرفوا أنها لأبي بسام الذي وصل وهم في أعمالهم، فذهب للبحث عن الغداء عند صديق آخر.

لم يسألوا عنه، فالعرف يقضي بأن الضيف طالما وضع

حاجياته في منزل فلان فيعني أنه ضيفه لا ضيف سواه.

حينما ذهبوا لمجلس الأمير قبيل المغرب ولم يكن الأمير حاضراً، وبدأ الحديث، قال أحد هؤلاء: لعلكم تعلمون بحضور أبي بسام. هذا الرجل صاحب المقالب الساخنة التي يرسمها لأصدقائه. لقد حانت الفرصة لرد التحية له بمثلها.

إنهم ما زالوا يتذكرون مواقفه الطريفة معهم، ودهاءه وحيلته، فيبتسمون. كانت القلوب بيضاء كالثلج علىٰ قمم الأطلس، لم تضق أخلاق الناس بعد.

قال أحدهم: لا أنسىٰ لأبي بسام موقفه حينما خلط الملح مع السكر القليل الذي لا نملك سواه.

قال الثاني: وكيف أنسىٰ حينما انتهز فرصة الظلام والدخان، ووضع في إبريق الشاي الفلفل الأحمر الحارق، وحرمنا متعة شربه علىٰ ندرته.

وقال الثالث: ما زلت أضحك منذ سنين من موقفه الطريف حينما تسلل تحت جنح الظلام ليأخذ طعام العشاء

الذي ينضج بهدوء على النار ليبتعد قليلاً ويأكله، وهو يسخر منا.

قال أحدهم واسمه محمد: لابد أن يشرب من تلك الكأس، ولابد أن نقابله بما يقابلنا به، لابد من أن ندبر له حيلة تجعله يكف عن ألاعيبه الطريفة مستقبلاً.

قال الثاني، والثالث: وما هي تلك الحيلة؟

قال: دعوني أفكر قليلاً.

انصرف الآخران للحديث الهامس بينهما، أما هو فظل مطرقاً يبحث عن مقلب طريف.

ابتلع الأفق الشمس، وحان وقت صلاة المغرب، في تلك اللحظة دخل الأمير في الوقت الذي نهض فيه الرجال الثلاثة للانصراف.

قال محمد للأمير: لقد نزل بنا ضيف صاحب روح مرحة، كثيراً ما شربنا من ألاعيبه الطريفة ما يجعلنا نضحك طول الحياة، ربما يأتي إليك بعد انصرافنا ليسأل عنا، فنحن لم نره بعد كل ما عرفناه به أنه وضع شنطته الحديدية في حجرتنا

الرملية.

قال الأمير: وماذا تريد أن أفعل؟

قال محمد: إن جاء إليك فلعلك تتصنع الغضب، وتتلقاه بشيء من العبوس، وتأمر بسجنه حتىٰ نعود بعد العشاء.

قال الأمير: إنك تطلب شيئاً مستحيلاً أو شبه مستحيل. كيف أقوم بهذا التصرف الطائش، وماذا سيقول الناس عني؟

تدخل الآخران وقالا: نحن الثلاثة نتحمل نتيجة ما يحدث. بإمكانك أن تقول له إن هناك شكوىٰ ضدك، ولابد من إيقافك حتىٰ يحضر الخصم.

وبعد جدال اقتنع الأمير، وقرر أن يستجيب لإلحاح أصدقائه الثلاثة.

طلب منهم وصفاً له خوفاً من أن يخطئ في شخص آخر. رغم ضآلة الاحتمال.

قالوا له: إنه نحيف، ضعيف الجسم تسهل السيطرة عليه، يعتمر عقالاً وشالاً مطرزاً بخطوط عريضة بنية اللون يلبس صديرية سوداء لا يخلعها صيفاً وشتاءً.

ذهب الثلاثة وعاد الأمير إلىٰ مجلسه بعد أن أدىٰ الصلاة.

وفجأة سمع صوتاً يقول: يا أمير، ولم يعطه وقتاً لإجابته وجده داخلاً عليه، كان رجلاً تنطبق عليه الأوصاف التي حددها جلساؤه الثلاثة تماماً.

سلم الرجل ولم يجبه الأمير، تجهم في وجهه كحزين، وأومأ إلىٰ الخوي الأسود اللون، ذي الجثة الضخمة، والسواعد الحديدية واسمه (حديد) وأمره باقتياد الرجل إلىٰ السجن.

حاول الرجل أن يعرف سبب ذلك، ولكن الخوي لم يعطه الفرصة انتزعه من علىٰ الأرض كعصفور، واعتصر أضلاعه حتىٰ كادت أن تختلف، أغلق باب السجن، وهو عبارة عن حجرة طينية لها باب خشبي عليه. ووضع عنده سراجاً ضعيف اللهب.

أما الأمير فقد ابتسم في أعماقه، وانتظر وصول أصدقائه بعد العشاء ليزف إليهم البشرىٰ.

عاد الرجال الثلاثة، ونهض الأمير واقفاً وهو يضحك. قال لهم: لقد حدث ما توقعتم لقد حضر ضيفكم، وبالغت في ضيافته، بما يليق به. قالوا: أين هو؟ قال ألا تسمعون صوته وهو يلقي عليّ شتائمه منذ أن أغلق عليه حديد باب السجن.

سألهم الأمير: هل أحضره إليكم؟ قالوا: لا نريد أن ننظر إليه وهو داخل هذا القفص الطيني لنشفي جروحنا التي سببتها لنا مقالبه، وليبقىٰ هذا المشهد الطريف عالقاً بالذاكرة، وقصة تُحكىٰ.

أخذهم الأمير إلىٰ السجن. لم يتكلموا. نظروا إلىٰ غريمهم من خلال ثقوب الباب الواسعة، وساعد ضوء السراج الخافت في قراءة ملامحه بدقة.

أصيبوا بشيء من الذهول. ولم ينبس أحد منهم بكلمة. عرف الأمير ذهولهم من ملامح وجوههم. سألهم وهو يهم بالجلوس في مكانه: ماذا في الأمر؟

قال أحدهم: (إذا برق البرق ناظر عيون ثورك). وقال الثاني: (برق العبي تتشابه).

وقال الثالث: مفسراً كلام صاحبيه: يخلق من الشبه أربعين. المسجون ليس ضيفنا، إنه قريب الشبه منه تماماً.

أصيب الأمير بصدمة. وأخذ العرق يتصبب منه. لقد وقع في ورطة كبرىٰ. ترىٰ ألا يجوز أن يكون أصدقاؤه الثلاثة قد تعمدوا إيقاعه في هذا الحرج، ولكنه أبعد هذا التفكير من ذهنه. لأنه يعرف أن علاقته بهم لم تكن تسمح بشيء من هذا العبث.

قال الأمير: لابد أن نبحث عن حل لتلك المشكلة التي وقعت فيها. كيف أبرر موقفي عند هذا الذي طرق بأبي ضيفاً.

قطعوا الكلام، وفكروا في طريقة للخلاص.

أطرق الأربعة وكأنهم في مأتم. بعد قليل قال الأمير: لقد وجدت الحل عودوا إلىٰ حديثكم. لا تتركوا للسجين فرصة أن يدرك المؤامرة التي نسجتم خيوطها لشخص ليقع فيها آخر.

طلب الأمير من الخوي حديد أن يحضر السجين

المظلوم. حينما وقف السجين علىٰ الأمير الذي ابتسم حين رآه أدرك أنه سجن بلا ذنب يستحق تلك العقوبة.

قال الأمير له: لماذا أمرت بسجنك؟

قال الرجل: لا. ولا أعرف أنني ارتكبت ذنباً.

قال الأمير: بلىٰ. قال الرجل: وما هو؟

أجابه الأمير: لأنه بلغني عنك أنك تحضر للقرية كثيراً ولا تحضر للسلام عليّ. وأن تمنحني الفرصة للقيام بواجب الضيافة نحوك. كما هي الحال مع الآخرين.

قال الرجل: وما في ذلك؟

قال الأمير: إنني أعتبر هذا نقصاً بحقي فأنا أفتح بابي دائماً للضيوف دون معرفة سابقة.

قال الأمير: ذلك ليخرج نفسه من الحرج خوفا من أن يظن الرجل أنه يعرفه، واستطرد قائلاً: كل أهالي القرية يعرفون هذا عني.

لقد شاهدتك كثيراً في السوق، وكنت الوحيد الذي لم يطرق بابي مرة واحدة.

قال الرجل: ولكني أتيت فهل استحق العقاب؟

قال الأمير: نعم لأنني أخشىٰ أن لا تكرر هذه الزيارة مرة أخرىٰ. أريد تذكيرك أن هذا الباب مفتوح لك دائماً، ولا أرضي عنك أبداً إذا تجاوزته إلىٰ منزل آخر.

ابتسم الرجل. ظن الأمير صادقاً، ووعده أن يكون ضيفه الدائم.

أشار الأمير إلىٰ الخوي حديد إشارة عليها اتفاق بينهما إذا حضر ضيوف من خارج القرية.

ذهب حديد وسحب خروفاً سميناً من حظيرة الماشية التي تقع خلف المنزل، ولم تمض إلا دقائق إلا والخروف قد وضع علىٰ النار.

أخذ الأمير يتبادل أطراف الحديث مع جلسائه وركز اهتمامه علىٰ الرجل السجين لكي يشعره بأهميته بالنسبة له.

أما الرجال الثلاثة فكانوا يحاولون التماسك خوفاً من أن تنطلق من أحدهم ضحكة مجلجلة تفضح الموقف.

وتعجبوا من براعة الأمير في الخروج من هذا المأزق.

أما الأمير فلم يدر مما يعجب. من تصرفه قبل مجيء الرجل أم بعده.

استأذن الضيف الأمير للذهاب ليزور صديقاً له.

أذن له الأمير علىٰ ألا تتجاوز الزيارة ساعة واحدة، فالعشاء علىٰ وشك النضوج.

خرج الرجل وأطلق الأمير وأصدقاؤه ضحكات عالية لم يعرفوها منذ زمن بعيد. لقد أرادوا جميعاً أن يسجلوا موقفاً طريفاً حسبوا له كل حساب. فإذا بهم يسجلون موقفاً أكثر طرافة لم يدر بأذهانهم.

مضت، ساعة وأمر الأمير حديد بتجهيز السفرة. كانت من خوص النخيل مصنوعة علىٰ شكل دائرة ليلتحق حولها الضيوف. مطرزة بخطوط حمراء وخضراء لا تمد إلا للضيوف المهمين.

مد حديد السفرة، ووضع عليها إناءً كبيراً به ماء للشرب وصحناً فضي اللون مملوءاً بالأرز يعلوه لحم خروف شهي.

في تلك اللحظة طرق الرجل السجين الباب واستأذن

الأمير في الدخول أذن له الأمير ورحب به، كانت المفاجأة أن دخل هذا الرجل وشبيهه صديق الرجال الثلاثة. ذُهل الأمير، واستبدت به الحيرة، أيهما الضيف ليرحب به. يخاف أن يخطئ فينكشف الأمر. كان الرجلان متشابهان تماماً في كل شيء.

أدرك أحد الرجال الثلاثة أصدقاء أبي بسام الموقف. فاتجه إلىٰ أبي بسام مسلماً ليعطي للأمير الفرصة للترحيب بضيفه، وإنقاذه من مأزق الشبه.

رحب الأمير بضيف أصدقائه أيضاً، ودعاهم جميعاً للجلوس علىٰ مائدة العشاء.

بعد الانتهاء من الأكل. نهض السجين المظلوم قائماً يحمد الله ويشكر الأمير علىٰ الضيافة، ولكنه اتبع ذلك قائلاً: لا تنس حق السجن أيها الأمير لقد انكشف الموقف.

هز الأمير رأسه موافقاً، وعاد الجميع لشرب الشاي الذي بدأ حديد في سكبه في الفناجين الزجاجية وغرقوا في الضحك.

8 - شقاوة

8 - شقــاوة

كانا توأما، ولم يكونا شقيقين. كانا توأم في تماثلهما في أشياء كثيرة. العمر. والأحلام والشقاوة. وتقارب الاسم وسكنىٰ حي واحد وعدد الأخوة.

ما يفترقان فيه هو الاختلاف ليس علىٰ المستوىٰ الاجتماعي كله ولكن في المعيشة.

كان (صالح) ينتمي إلىٰ أسرة اجتماعية تملك كثيراً من بساتين النخيل يأكلون ثمرها ويزرعون أرضها، ولا يعرف الجوع إليها طريقاً وفي عيد الأضحىٰ ينحرون عدداً من الكباش أو ناقة شابة يأكلون منها علىٰ مدار العام.

أما صويلح فينتمي إلىٰ أسرة متوسطة لكنها أقرب إلىٰ الفقر لا تملك إلا عدداً قليلاً من النخيل (دون الأرض) في عدد من البساتين التي يملك سواهم أغلبها، وكانت أسرة صويلح أحياناً كثيرة لا تذبح الأضحية لقلة ذات اليد، وكان والده يضطر إلىٰ العمل اليدوي هناك وهناك كسباً للرزق فمرة في الفلاحة عند الغير ومرة في متابعة السواني وثالثة في

أعمال البناء ورابعة في الاحتطاب من البرية، وقليلاً ما يجد وقتاً للراحة.

ذات ليلة صيفيه بدرية قد أضاء القمر السماء بلونه الفضي وقريباً من منتصف الليل. كان صالح وصويلح يجلسان علىٰ أحد المقاعد الصخرية في مجلس القرية. وكان الوقت هادئاً إذ لا يوجد أحد سواهما. حيث أن من العادة أن يأوي الأهالي إلىٰ منازلهم للنوم بعد صلاة العشاء من أجل الاستيقاظ فجراً للصلاة ثم للذهاب إلىٰ أعمالهم في ساعة مبكرة.

لم يكن صالح وصويلح بعد قد اتجها للعمل أياً كان نوعه فمازالا في مرحلة المراهقة. لديهما أحلامهما الخاصة بها قبل أن يشغلا نفسيهما بهموم العائلة، ولهذا ففيما عدا الاستيقاظ لصلاة الفجر طاعة لربهما واستجابة لوالديهما كانا ينامان طويلاً حتىٰ منتصف الضحىٰ أحياناً.

قال صالح لصويلح وهما يتجاذبان أطراف الحديث: لك عندي بشارة فقال صويلح ما هي؟ أجابه صالح بنوع من

الفخر والتحدي: لقد عثرت اليوم علىٰ المكان الذي يخبئ فيه والده مفتاح (غرفة القفر)[1] لقد كان يضعه في مكان لا يعرفه أحد حتىٰ الجني الأزرق كما يقولون، وحينما أذهب للنوم سآخذ المفتاح، وأسير بهدؤ لكي لا أوقظ أحداً بحركتي، وأدخل الغرفة، وآخذ بعضاً من (القفر) وأضعه في قطعة من الخيش، وأرفعه في مكان سري حتىٰ الضحىٰ حيث التقي وإياك، ونذهب سوياً لمقصورتنا المعهودة لكي نطبخ هذا اللحم كوجبة غذائية فاخرة خاصة وأن جميع الأدوات والماء موجودة في عين المكان بعد اجتماعاتنا السابقة، ولسنا بحاجة إلىٰ نقل أشياء تدل عيون المارة علينا.

قال صويلح، وأنا غدا سوف أحضر لك بعض الخضار لكي نضيفها إلىٰ القفر ليكون غداءنا متميزاً في هيئته وطعمه.

هنا ضحك صالح ضحكه مجلجلة، وقال لصويلح ومن أين تأتي بالخضار وأنتم أسرة لا أرض تملكها لكي تزرعها؟

قال صويلح. لا عليك فأنا أعرف فلاحاً طيب القلب.

---

(1) القفر أي القديد أو اللحم الجاف.

كـريم الكـف كنيتـه (أبـو إبـراهيم) لـن يبخـل علـي في مطلـب احترامـاً لعلاقة قرابة ولو كانت بعيدة.

اقتنع صالح بإجابـة صـويلح، ولـم يكـن يعلـم أنـه يخفـي حقيقـة الوسـيلة التـي سيحصـل بهـا علـىٰ الخضـار، ونهضـا للانصـراف إلـىٰ النـوم علـىٰ وعـد باللقـاء في ضـحىٰ الغـد المتأخر.

التقيـا قـرب البئـر التـي يسـقىٰ منهـا الفلاحـون بسـاتين النخيل ثم افترقا. صالح من أجل أن يذهب إلىٰ (المقصـورة) لكـي يبـدأ في طـبخ (القفـر) لأنـه جـاف وبحاجـة إلـىٰ وقـت لنضجه قبل أن يحضر صويلح الخضار كما وعد.

ذهـب كـل منهمـا في طريـق، وعنـدما وصـل صـالح إلـىٰ مكانهما في (المقصورة) شرع في تكسير وليس تقطيـع (القفـر) لأنه جاف. ثم وضعه في (قـدر)، وصـب عليـه قليـلاً مـن المـاء وقطـع بصـلة صـغيرة ثـم أشـعل النـار ووضـع (القـدر) عليهـا، وجلـس يراقبهـا، ويقلـب النـار ذات اليمـين وذات الشـمال، ويزيدها حطبـاً من جريد النخيل الجافة، وعينه ترقـب الطريـق

انتظاراً لصويلح وخضاره.

عندما أوشك (القفر) علىٰ النضوج قام صالح بإضافة بعض الملح والبهارات وانتظر قليلاً، وحينما تأخر صويلح في الحضور أزاح القدر من النار ووضعه جانباً.

أخذت صالح إغفاءه قصيرة أيقظه منها حركة صويلح الذي جاء في تلك اللحظة.

نظر صالح إلىٰ صويلح فوجده مرعوباً يتصبب العرق من جبينه، ويخفق قلبه بشده، قال صالح، ويلك ما شأنك لماذا أنت مضطرب وخائف، ثم أين هي الخضار التي وعدت بها؟

أشار صويلح إلىٰ صالح بحركة إصبعه أن يلتزم الصمت، ويكف عن السؤال حتىٰ تهدأ نفسه، ويسترد هدوءه.

بعد أن هدأت نفس صويلح. أجاب علىٰ أسئلة صالح فقال: أنه لم يتمكن من إحضار الخضار، وعندما سأله صالح لماذا؟ أجابه أنه عندما دخل بستان النخيل، وبدأ يجمع الخضار من أشجارها، ويضعها في كيس معلق بيده. كان أبو

إبراهيم يراقبه وهو لم يشعر به حيث كان مختفياً في إحدىٰ (السواقي) خلف جذع شجرة يراقب صويلح الذي بدأ مهمته بقطف الخضار حيناً وأحياناً تطبيقاً لمبدأ الشقاوة والتمرد كان يقظم ثمرة الباذنجان والباميا وهما في شجرتهما فيأكل نصفها ويدع الباقي معلقاً.

لم يشعر صويلح وهو منهمك في عمليته الجريئة إلا بصوت البندقية الموجهة إليه حيث كان، وإذا بالتراب والطين الذي أثاره ما في جوف البندقية يتطاير في عينه ووجهه، وبصوتها يثير رعبه، فرمىٰ الكيس من يده واسلم رجليه للانطلاق هارباً كظبي مذعور، حتىٰ أنه لم يدر كيف قفز من فوق جدار بستان النخيل.

كان يلتفت من حين لآخر في رحلة هروبه معتقداً أن أبا إبراهيم يتعقبه، وحينما وجد نفسه وحيداً ولا متابع له توقف ليسترد أنفاسه، وتفقد رجليه حيث لاحظ أنهما لم يصبا بسوء من اثر الرصاص، ولم تجر منهما الدماء. فأدرك أن أبا إبراهيم لم يحش بندقيته بالرصاص، وإنما بالبارود والقرطاس، وكان

مقصده إخافة هذا الزائر الخفي لمزرعته فقط.

قال صالح، وكيف يعمل بك هكذا، وأنت تقول أنك تعرفه وأنه رجل طيب كريم الكف. قال صويلح: لم أكن لأقول لك الحقيقة في أنني كنت أذهب خلسة إلىٰ بستان أبي إبراهيم في مرات سابقة وأختلس بعضا من الخضار في غفلة منه. إلا أنه يبدو قد اكتشف من يقوم بهذا العمل حينما رأىٰ بعض الخضار مأكول نصفها وهي في شجرتها. فأخذ يترقب هذا اللص الظريف حتىٰ أتت بي هذه الفرصة.

قال: صالح بعد أن أفلسنا هل نأكل قديدنا هكذا؟ قال: صويلح لا. لدينا قليل من الأرز لنضعه علىٰ اللحم ونطبخه حتىٰ ينضج ونأكل غداءنا هنيئاً مريئاً.

أعاد صالح القدر إلىٰ الأثافي، وقام بإشعال النار والتي أوشكت علىٰ الانطفاء، وحينما بدأ الماء يغلي، أضاف الأرز بعد غسله إلىٰ اللحم.

انتظرا (صالح وصويلح) عدد عشر دقائق حتىٰ نضج الأرز، وشرب ماءه فأنزلا القدر وأحضرا الصحن ووضعا

غداءهما فيه، ثم أكلا بنهم من لم يذق الطعام منذ أيام، ثم افترقا بعد ذلك. صالح ذهب إلىٰ منزل أهله ثم إلىٰ النخيل لمساعدة أهله في حصاد البرسيم حيث أوشكت صلاة العصر علىٰ دخول وقتها وفضل صويلح أن يأخذ قسطاً من النوم بعد مفاجأة البندقية.

مكث صويلح في المنزل عدة أيام لا يخرج منه لكي يأمن الالتقاء بأبي إبراهيم في الطريق خاصة، وأنه يسكن قريباً منه لكنه أصيب بالملل من البقاء حبيساً، وهو الطائر الذي لا يعجبه سوىٰ التنقل ذات اليمين وذات اليسار بكامل حريته.

قرر الخروج من المنزل من الباب الآخر وسلوك طريق لا يسلكه عادة أبو إبراهيم، وأن يذهب في جولة بين الآبار وبساتين النخيل التي لا يمكن أن يرىٰ أبا إبراهيم ذاهباً إليها لأنه لا يملك شيئاً فيها.

استمر صويلح علىٰ ذلك أياماً، ولكنه عندما خرج ذات يوم ضحىٰ إلىٰ الطريق الذي اتخذه مسلكاً جديداً فوجئ بأبي إبراهيم يقابله فأسقط في يده هل يهرب إلىٰ الجهة

المعاكسة للطريق. أم يستمر في طريقه، وبينما هو يفكر ولم يصل بعد إلىٰ حل. إذا بأبي إبراهيم يصل إليه ويتجاوزه بعد أن ألقىٰ عليه السلام فقط فاندهش صويلح من تلك المفاجأة، وأدرك بثاقب فكره أن أبا إبراهيم حينما أطلق عليه بندقيته لم يعرفه، وإلا فما منعه بعد أن التقىٰ به وأصبح قريباً منه أن يتخذ بحقه أي عقاب كنتيجة طبيعية لما فعله بخضاره.

حينها قرر صويلح أن يسلك طريقه المعتاد بعد أن أمن شراً من أبي إبراهيم، وأخذ يذهب كل ضحىٰ إلىٰ البئر القريبة للاستحمام تحت الغروب المملوؤة بالماء الرقراق البارد حيث يجلس علىٰ صخرة الريهجان في وسط اللزا ويترك الغروب تسكب عليه ماءها، وهو في كامل لباسه متخذاً من يديه صابوناً وليفاً لتنظيف جسده حيث لم يوجد الصابون والليف بعد.

خرج صويلح من (اللزا) وذهب وجلس علىٰ صخرة قريبة بانتظار جفاف ملابسه ليعود أدراجه إلىٰ منزله.

في ضحىٰ الغد خرج صويلح للبئر من أجل الاستحمام،

وإزالة العرق والوسخ الذي علق بجسمه بسبب حرارة هذا الصيف القائظ، وحينما وصل إلىٰ البئر هذه المرة فوجئ بأن الذي يقوم بقيادة الساقية هو أبو إبراهيم، لأن اليوم هو دوره في السقيا في حين يتابع أخوه الأكبر جريان الماء ويقوم بتصريفه في الأحواض.

وقف صويلح يتابع أبا إبراهيم خلف سانيته، حيث ناداه أبو إبراهيم عندما وصل المصب قائلاً له: إنه لم ينم البارحة إلا قليلاً وأنه من الصباح الباكر وهو يتبع السانية وقد أصابه التعب، وطلب من صويلح أن ينوب عنه في متابعة السانية لكي يتمكن من أخذ إغفاءه قصيرة في ظل نخلة أشار إليها بيده.

لم يجد صويلح مجالاً للاعتراض، وأخذ العصا من أبي إبراهيم وبدأ يتابع سير السانية ذهاباً وإياباً في المنحاة ويغني أبياتاً شعبية لإضاعة الوقت لا يعرف قائلها:

المغرفة من بنت الأجواد تيزي

والإقريص لولشي به عليه

***

غــــرب الزعـــــب يبـــي هجــــور

مــــا هــــوب لعــــب وخربطــــة

***

سمره تصيح وتزعج الصوت لـدحيم

تقـــــول ذا غــــرب ثقيـــــل عليـــه

***

كــــن في ضـــــامري قـــدر يفــــوح

أو غـــــروب تـــــدالي في ركيـــــة

***

أما أبو إبراهيم فذهب واضطجع تحت النخلة كما قال لصويلح.

أمضىٰ صويلح في هذا العمل قرابة الساعة حيث قرر إعادة العصا لأبي إبراهيم لمتابعة عمله لكي ينصرف لشأنه، ولكنه حينما التفت ناحية النخلة لم يجد أبا إبراهيم وهذا يعني أنه استيقظ من نومه وذهب إلىٰ جهة أخرىٰ. هنا قرر صويلح أن يترك السانية وشأنها يتداخل بعضها في بعض،

وظن أن أبا إبراهيم فعلاً كان يعرفه حينما جاء لسرقة خضار من بستانه، وأنه قرر أن يكلفه بمتابعة السانية بطريقة المقايضة، واحدة بواحدة وقبل أن يتخذ قراره لمح أبا إبراهيم، وقد أقبل من الطريق المحاذي للمنحاة وهو يتثاقل في مشيته، لأنه يحمل في (شق) ثوبه شيئاً.

حينما وصل أبو إبراهيم للمنحاة نادىٰ صويلح وحينما جاء إليه قال له أبو إبراهيم افتح (شقك يا صويلح) ثم ألقىٰ أبو إبراهيم في (شقه) ما كان فيه. وما جاء به، وكان كمية من الخضار المتنوعة التي قطفها للتو من بستانه بينما كان صويلح مشغولاً بمتابعة السانية حيث قال أبو إبراهيم: وهو يضحك (خذ يا صويلح هذه الخضار. حلالاً عليك) ولا تختلس مني أو تأكل نصف الثمار بخفية). فقال له صويلح. أو كنت تعرفني يا عمي فرد أبو إبراهيم. إنني أعرفك منذ زيارتك الأولىٰ ولكنني تسامحت علىٰ أمل ألا تكرر ما فعلته، ولكنني رأيتك مستمراً قررت رمايتك بطلقة بارود وقرطاس لإخافتك فقط لا لقتلك.

أخذ صويلح الخضار من أبي إبراهيم، وأعاد إليه عصا السانية وهو يبتسم ثم سلك طريقه ذاهباً إلىٰ منزل أهله وهو يتعجب من كرم أبي إبراهيم ولطفه وسماحته.

بعد العشاء وحسب ميعاده مع صديقه (صالح) التقيا مجدداً في مجلس القرية حيث حكىٰ صويلح لصالح قصته هذا اليوم مع أبي إبراهيم، وإعطائه الخضار ثم قال لصالح. خلاص لن أمدّ يدي علىٰ خضرة أبي إبراهيم ولا غيره حتىٰ لو أكلت القديد يابساً. ثم قال أيضاً لصالح وأنت لماذا لا تبعد عن مفتاح غرفة أبيك؟ وتضاحكا وافترقا إلىٰ صباح الغد بانتظار غزوة جديدة.

9 - الولد الوحيد

9 -الولد الوحيد

أنهىٰ أبو إبراهيم صلاة المغرب والعشاء جمع تأخير وبقىٰ في مصلاه برهة من الزمن قضاها في التسبيح والتهليل وحمد الله علىٰ نعمه، وعندما انتهىٰ من ورده. أخذ يفكر ماذا يفعل هذه الليلة؟ هل يذهب إلىٰ موقد ناره فيقوم بإشعالها من جديد وصنع فنجان من القهوة. أم يذهب لينام، وانتهىٰ الجدل بينه وبين نفسه بالاختيار الثاني نظراً لكونه يشعر بالتعب بسبب المجهود الذي بذله هذا اليوم منذ الصباح الباكر في تتبع وقص الحشائش والتنقل من مكان إلىٰ آخر بحثاً عن الأفضل حتىٰ غروب الشمس. لم يسترح عدا فترة قصيرة أدىٰ خلالها صلاتي الظهر والعصر جمعاً، وتناول بضع تمرات غداء، واتبعها قليل من الماء ليعاود عمله من جديد.

حسم أمره، واتجه إلىٰ الوسادة الرملية التي صنعها بيديه مساء أمس، ووضع عليها كيس الخيش الفارغ ليقي شعره من تسلل حبات الرمل إليه. ثم مدد جسمه، وأسلمه للنوم لم

يكن بحاجه إلىٰ فراش فالثوب الذي يلبسه كان ثوبه وفراشه وغطاءه والأرض رملية تساعد جسمه المتعب علىٰ النوم.

كان الجو صافياً، والقمر في منتصف الشهر، وقد ملأ الكون من حوله بنوره الفضي، كما كان المناخ معتدلاً لأنه في منتصف الربيع إذ لا حرّ ولا برد. كما كان الكون صامتاً من حوله فلا شيء يمكن أن يحدثه أو يتحدث معه. حتىٰ حماره الذي قيده قريباً منه كف عن الحركة وقل نهيقه مما يعني أنه استسلم بدوره للنوم.

أمضىٰ أبو إبراهيم ليله نوماً هانئاً لم ينقطع حتىٰ بيقظة. وحينما فتح عينيه وأخذ يتأمل الأفق من حوله رأىٰ بخبرته أنه قد تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر فعرف أن صلاة الفجر قد حانت، وكانت خبرته وحدسه هي الساعة التي يوقت بها حركة الليل والنهار من حوله.

نهض من مكان نومه، وذهب إلىٰ مصلاه حين أذن لنفسه لصلاة الفجر ثم تيمم بالرمل الطاهر الطيب، وأدىٰ صلاة الفجر وقبلها سنتها المؤكدة.

كما فعل بعد صلاة العشاء أمضىٰ أبو إبراهيم في مصلاه بعض الوقت لتلاوة بعض أذكار الصباح والأدعية التي يحفظها منذ الصغر، ثم انتظر حتىٰ أسفر الكون من حوله، وخلع إهابه الأسود.

نهض أبو إبراهيم وذهب إلىٰ حيث موقد ناره البارحة، وأخذ عوداً من الأرض، وقام بنبش النار الخامدة. حتىٰ وجد جمرة صغيرة مازالت حية. أخذ ينفخها بفيه، ويطعمها بعض ورقات الشجر الجافة الرقيقة، حتىٰ اشتعلت، ومازال يطعمها مما حوله من أوراق وأغصان كبيرة وصغيرة حتىٰ استوت ناراً كبيرة قادرة علىٰ صنع قهوته وشايه.

أخذ أبو إبراهيم دلة القهوة وإبريق الشاي، وذهب إلىٰ حيث القربة المعلقة في غصن الشجرة، وملأ الإبريق والدلة من الماء، وعاد ووضعهما قرب النار، وجلس يراقبها بانتظار غليان الماء.

كان الصمت هو المسيطر علىٰ الجو فلا أحد حوله يحدثه. كما أنه لم يجد حتىٰ موضوعاً ليتحدث مع نفسه،

ويحدثها واستغرق في متابعة النار حتىٰ رأىٰ الدخان الكثيف يتصاعد من الدلة والإبريق. حيث أبعدهما عن النار قليلاً، ووضع القهوة في الدلة، وأخذ يحركهما بعود ثم وضع الشاي والسكر معاً في الإبريق وحركهما بعود آخر، ثم قربهما عند النار وأخذ يراقب غليانهما مرة أخرىٰ مما يدل علىٰ أنهما أصبحا لائقين للشرب، استخرج أبو إبراهيم وعاء تمر من (المزودة) التي وضعها بجانبه لكي يتكئ عليها، وصب فنجان قهوة لنفسه، وبدأ علىٰ اسم الله يتناول بضع تمرات، وكان الكون مازال يمد من حوله حبال الصمت.

وعند شربه للفنجان الثاني أحس بحركة من خلفه. فالتفت وإذا هو ببدوي علىٰ ناقته يقف علىٰ رأسه. سلم البدوي علىٰ أبي إبراهيم الذي رد التحية بأطيب منها، ودعاه للجلوس. لم يتأخر البدوي في إجابة الدعوة. فأناخ ناقته، ولم يقيدها لأنها ليست بحاجة إلىٰ الحد من حركتها، لكونها مطيعة لإشارته، وجلس البدوي مقابلاً لأبي إبراهيم وصب له الآخر فنجاناً من القهوة ووضع وعاء التمر أمامه، وأخذ

البدوي في ارتشاف القهوة، ومازال الصمت مخيماً بينهما، ولم يعرف كل منهما كيف يبدأ الحديث.

انتهىٰ البدوي من شرب القهوة بتحريك الفنجان علىٰ الطريقة المتبعة لدىٰ المجتمع في ذلك الزمن. ثم قام أبو إبراهيم باستخراج مجموعة من (القرصان) الممسوحة بالدهن البري، ووضعها أمام البدوي ثم صب له (بياله) من الشاي حينما أخذها البدوي ورأىٰ حمرة الشاي قال لأبي إبراهيم (في البر تشرب حلو) (وين الصبوح)؟ قال أبو إبراهيم، ومن أين لي بذلك وأنا لست راعي غنم ولا خباء وليس معي غير حماري؟

نهض البدوي واستخرج وعاء من (المزودة) المعلقة علىٰ جانب الناقة وبغمزه منه نهضت الناقة واقفة، حيث أحنىٰ البدوي رأسه ودخل بين رجليها، وأخذ يحلبها حتىٰ امتلأ الإناء، وعلته رغوة. بطوله. ثم أناخ الناقة مرة أخرىٰ.

مدّ البدوي الحليب لأبي إبراهيم وقال اصطبح (يافلان)، لأنه لم يعرف اسمه حتىٰ الآن. أخذ أبو إبراهيم

الوعاء وأخذ يشرب الحليب حتىٰ ارتوىٰ ومده للبدوي الذي فعل مثله، وأعاد الوعاء مرة أخرىٰ لأبي إبراهيم وبه قليل من الحليب قام أبو إبراهيم بسكب الشاي من الإبريق في الرمل. ثم قام وغسله من أثر الشاي من القربة، وصب الحليب في الإبريق ووضعه قرب النار منتظرا غليانه حيث أبعده، ووضع عليه قليلاً من السكر. ثم صب (بيالة) وقال خذ ياالأخو. فانتهزها البدوي الفرصة وقال ويش اسمك يا معزبي فأنا جلست معك من دون معرفة فقال له: أنا أبو إبراهيم.

ثم سأل أبو إبراهيم البدوي إلىٰ أين أنت ذاهب؟ فقال البدوي للديرة القريبة (قرية أبي إبراهيم)، وسأله ثانية وماذا تريد؟ فقال لأشتري بعض اللوازم من شاي وقهوة وسكر وأرز للخباء فأنا أسكن في خباء قريب منك خلف هذا الطعس، وأبحث عند (الفلاليح) إن كان عندهم (طلاعة) رخلة أو عناق علىٰ النصف. ثم قال البدوي لأبي إبراهيم ما عندك طلاعة. آخذها منك؟ قال أبو إبراهيم أنت عرفت اسمي وأنا حتىٰ الآن ما عرفت اسمك. قال البدوي اسمي

(ذيب بن ذياب) أطرق أبو إبراهيم مفكراً في هذا الاسم الذي سمعه. إنه يدل على الافتراس والغدر. وبينما كان أبو إبراهيم مستغرقاً في التفكير في هذا الاسم إذا بالبدوي يسأله ما قلت لي يا حضري عندك (طلاعة) وإلا لا؟ فرد أبو إبراهيم قائلاً لقد سبق أن أطلعتهن مع (مريح) قال البدوي موفق إن شاء الله.

كان أبو إبراهيم يقصد (بمريح) الذبح إذ أنه ذبح صغار غنمه كلها فذلك خير له من إخراجهما مع بدوي اسمه (ذيب ابن ذياب) متأسياً في ذلك بما حدث لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما سال أحدهم ما اسمك؟ فقال سقر، فقال عمر، وأين تسكنون؟ فقال في الحرة فقال عمر رضي الله عنه أدرك أهلك فقد احترقوا وحينما ذهب البدوي إلى أهله وجد خباءه محترقاً.

انتهى البدوي (ذيب) من شرب الحليب، استأذن في الانصراف وامتطى ناقته، واستثارها، واتجه صوب القرية.

أما أبو إبراهيم فقام بتجميع آنيته، وأدوات قهوته وشايه،

وضعها في المزودة. ثم نهض مع بداية بزوغ الشمس وفرش (الشبكة) المصنوعة من حبال الليف القوية، وبدأ يجمع الأعشاب وكلما جمع جزءاً قام بصفه وتنظيمه في الشبكة بطريقة تمنعه من التساقط من خلال الفتحات الواسعة.

استغرق أبو إبراهيم فترة الضحىٰ في القفز من مكان إلىٰ آخر لتجميع الحشائش ورصفها كالحجارة في الشبكة، وعند حلول وقت صلاة الظهر كان قد انتهىٰ تماماً من عمل التجميع، وربط الشبكة.

أحضر أبو إبراهيم حماره الذي كان مقيداً قريباً منه، وأقامه ملاصقاً (لنقلة الأعشاب) ثم قام برفعها من اسفل حتىٰ استقرت علىٰ ظهر الحمار وقام بتوثيقها من الأمام والخلف حتىٰ لا تسقط أو تميل أثناء المشي، ثم وضع أبو إبراهيم مزودته وقربته علىٰ (النقلة) ووجه حماره إلىٰ بداية الطريق نحو القرية. حيث استمر في رحلة استمرت لثلاث ساعات دون انقطاع كان يقطعها ويتغلب علىٰ طولها بالغناء وترديد مقطوعات شعرية تساعده علىٰ عناء الطريق.

قطع أبو إبراهيم ثلاث أرباع المسافة التي تفصله عن القرية وكان الوقت قريباً من صلاة العصر، وحينما التفت أبو إبراهيم علىٰ يساره وجد أنه قريب من خباء بدوي تربطه به صداقة قوية. مال إليه أبو إبراهيم حيث وجده واقفاً في مقدمة الخباء وكأنه علىٰ موعد معه وما أن رآه البدوي حتىٰ ذهب إليه مسرعاً وألقىٰ عليه التحية مرحباً به وساعده علىٰ إنزال (النقلة) عن ظهر الحمار للتخفيف عنه ثم اصطحبه إلىٰ حيث موقد النار وجلسا متقابلين، وصب البدوي فنجان قهوة لأبي إبراهيم الذي أخذه وشربه بسرعة عندها قال البدوي لأبي إبراهيم: يبدو أنك منذ مسيرك من المكان الذي كنت فيه لم تتوقف ولم تتناول شيئاً. فهز أبو إبراهيم رأسه موافقاً، هنا قام البدوي وذهب إلىٰ أقصىٰ الخباء وأحضر إناء به بعض اللبن ووعاء آخر به بعض التمر، وطلب من أبي إبراهيم أن يتناول غداءه المتأخر هنيئاً مريئاً.

انتهىٰ أبو إبراهيم من الغداء البدوي ثم استأذن مضيفه ليصلي صلاتي الظهر والعصر جمعاً وقصراً. حيث أبلغه

البدوي أنه سينضم إليه عندما يشرع في صلاة العصر. لأنه لم يصلها بعد.

صلىٰ أبو إبراهيم الظهر، وانضم إليه البدوي مأموماً وعندما صلىٰ أبو إبراهيم ركعتين سلم منهما حيث أكمل البدوي بعد ذلك ركعتين إتماماً للصلاة.

استأذن أبو إبراهيم من مضيفه في الانصراف لعله يتمكن من الوصول إلىٰ قريته مع غروب الشمس. ثم انصرف إلىٰ حماره ليحمل عليه (النقلة) التي ساعده البدوي علىٰ حملها علىٰ ظهر الحمار.

وما إن اتجه أبو إبراهيم إلىٰ بداية الطريق، وأعطىٰ حماره إشارة الانطلاق، إذا بالبدوي يسأله قائلاً: إنني أعرف أن لك ابناً مريضاً بالجدري فكيف حاله؟ فرد عليه أبو إبراهيم أن له في البرية يومين لم ير إبنه، ولكنه عند خروجه من القرية كانت صحة ابنه مستقرة. ثم بدأ رحلة المسير.

لم يعلم البدوي أنه بسؤاله هذا قد نكأ جرح أبي إبراهيم وتساؤلاته التي غابت عنه طيلة يومين وهو في رحلة البرية،

ولهذا فإن أبا إبراهيم عند مسيره نحو القرية أخذ يسأل نفسه أسئلة عن صحة ابنه ويجيب عليها بنفسة مرة أخرىٰ بلا فائدة. هل تحسنت صحة ابنه؟ هل هي مستقرة؟ هل ساءت؟ هل توفىٰ؟ وطبعاً لم يكن هناك جواب وظلت هذه الاسئلة الشغل الشاغل لأبي إبراهيم طيلة الطريق. حتىٰ أنه لم يشعر بأثر ارتطام أصابع قدميه بحجارة الطرق التي أدمتها.

ابتلع الأفق قرص الشمس الذهبي، وأبو إبراهيم غارق في أفكاره وتساؤلاته، ولم يخرجه منها سوىٰ نهيق حماره حيث انتبه أبو إبراهيم ليجد نفسه علىٰ طرف القرية، وأنه يسير بجوار المقبرة حيث رأىٰ عدة مشاعل داخل المقبرة لأناس يحفرون قبوراً. أصابه الاضطراب وسيطر عليه رعب شديد من أن يكون أحد هذه القبور لابنه المريض، وكاد أن يميل إلىٰ أصحاب المشاعل ويسألهم لمن يحفرون القبور إلا أنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال لماذا أقدم التشاؤم علىٰ التفاؤل؟ ولماذا لا أحسن الظن بالله؟ واستمر في طريقه متجاوزاً المقبرة، ولكنه لم يتجاوز تساؤله، وصل أبو

إبراهيم إلىٰ منزله في أقصىٰ الحي الذي يسكنه فلاحظ أن السكينة والهدوء يسيطرن علىٰ الموقف فحمد الله علىٰ ذلك وأيقن أن ابنه بخير، لأن لو كان متوفياً لشاهد الأقارب وسكان الحي متواجدين في منزله أو حوله.

فتح باب المنزل الكبير، وأدخل الحمار، وذهب إلىٰ (صفة) الأعلاف حيث أنزل حمولة الحمار ثم ذهب به إلىٰ (الصفة) الأخرىٰ حيث قيده بعد أن وضع أمامه حزمة من الأعشاب.

وصعد أبو إبراهيم إلىٰ أعلىٰ منزله حيث وجد أن زوجه الثانية (أم محمد) قد انصرفت من صلاة العشاء. حيث القىٰ عليها السلام فردت بمثل هذه التحية، وحمدت الله علىٰ سلامته. ثم سألته هل أحضر لك العشاء فأمهلها أبو إبراهيم حتىٰ يؤدي صلاتي المغرب والعشاء.

أحضرت أم محمد العشاء والمكون من قرصان القمح الكامل (البر) مطبوخة مع بعض خضار هذا الفصل من العام ومضافاً إليها قطعاً من لحم الضأن المخزنة منذ عيد

الأضحىٰ.

تناول أبو إبراهيم عشاءه ثم مسح يديه علىٰ بعضهما، ومسح بعد ذلك بها وجهه ولحيته علىٰ طريق أهل القرية (مماسح الرجال لحاها) لأنهم يستغلون ذلك في معالجة جفاف الوجه بسبب المناخ القاسي.

صعد أبو إبراهيم إلىٰ سطح المنزل، وجلس علىٰ طرف فراش النوم حيث جاءت زوجه (أم محمد) وجلسا يتجاذبان أطرف الحديث حيث سألها أبو إبراهيم عن حال ابنه (إبراهيم) حيث قالت أم محمد: بأن صحته تحسنت وأن البثور قد جف ماؤها، وهي في طريقها إلىٰ الجفاف الكامل والتقشير تم السقوط.

حمد أبو إبراهيم الله علىٰ نعمته ونهض يسير علىٰ أطراف أصابعه متجهاً حيث ينام إبراهيم في السطح الثاني، وحينما قرب من توقف حيث يراه متمدداً علىٰ فراشه وقد يكون نائماً.

رجع أبو إبراهيم إلىٰ مكانه، وجلس مع زوجه، حيث

قال لها إنه غدا سوف يلغي (الحجبة) التي فرضها علىٰ أكل إبراهيم طوال الفترة السابقة إلا أن أم محمد اعترضت علىٰ ذلك قائلة: إنك بذلك تقربه من الموت فرد عليها قائلاً إن ما نعمله بتلك (الحجبة) هو الموت بعينه كيف نحرم مريضاً من الأكل اعتماداً علىٰ تجارب اجتماعية قد تصدق وقد تكذب، حينها قالت أم محمد: (أنت حر) فهو ابنك لأنها رأت أن من حقها أن تبدي رأيها، ولكن لا يحق لها الاعتراض لأن إبراهيم ليس ابنها.

بعد صلاة الصبح وعندما استعد أبو إبراهيم للخروج إلىٰ بساتين النخيل لمتابعة شؤون السقي. أعطىٰ أم محمد (قبضة يده) من اللحم القديد (القفر) وطلب منها طبخها حتىٰ تنضج وتؤكلها إبراهيم وتسقيه مرقها حين يصحو من نومه.

قامت أم محمد بتنفيذ ما طلبه زوجها، وحينما قدمت اللحم القديد والمرق إلىٰ إبراهيم. التهمه بشهية الجائع المحروم.

واستمر أبو إبراهيم أسبوعاً وهو يعطىٰ أم محمد قبضته القديد وهي تقوم بطبخها وإطعامها لإبراهيم.

تحسنت صحة إبراهيم كثيراً، وجفت البثور، وبدأت في التطاير مخلفه أثراً بسيطاً علو وجهه، ولكنها كانت قد أضاعت نور عينيه.

كما بدأ إبراهيم يقوم من فراشه، ويصعد وينزل في البيت سليماً معافىٰ، وكم كانت فرحة والده عظيمة حين أبلغه إبراهيم بأن البصر قد عاد قوياً إلىٰ عينه اليمنىٰ، وكأنه يبصر بهما جميعاً.

ومر أسبوع آخر والحالة الصحية لإبراهيم تتقدم نحو الأفضل حتىٰ شفي تماماً.

ذات يوم، وبعد صلاة المغرب. جاء الأخ الأكبر لأبي إبراهيم زائراً للاطمئنان علىٰ صحة ابن أخيه حيث غمرته سعادة وسرور لما وجده عليه من حال وحمد الله علىٰ ذلك.

طلب الأخ الأكبر من أخيه أبي إبراهيم أن يسمح لإبنه إبراهيم بالمجيء إلىٰ عمه ضحىٰ الغد وهو يقوم بعمله في

متابعة السواني التي ترفع الماء من البئر.

لـم يعـترض أبـو إبـراهيم علـىٰ رغبـة أخيـة الأكـبر، وفي الصباح طلـب مـن إبـراهيم الـذهاب إلـىٰ عمـه عنـد البئـر التي يسـقي منهـا، وذهـب إبـراهيم إلـىٰ عمـه ووجـده يسير خلـف السواني من (المصب إلىٰ المعدل) وبالعكس، وهـي تصـب غـروب المـاء في الحـوض (اللـزا) ثـم تنصـرف لكـي تعـود الغروب مرة أخرىٰ لرفع الماء من جديد.

حينما رأىٰ الأخ الأكبر ابن أخيه دعاه للسير بجانبه وهـو يتبع حركه "السواني، وهنا طلب منه أن يبدأ تلاوة ما حفظـه من القرآن الكريم علىٰ يد المطوع قبل أن يصاب بالجـدري، وكم كان سرور العم كبيراً أن تلا ابن أخيه ما كـان يحفظـه مـن دون نسيان، وأن ذاكرته لم تتأثر بمرحلة المرض.

أمضـىٰ إبـراهيم عـدة أيـام في مصـاحبة عمـه خلـف السـواني، وهـو يقـرأ عليـه مـا حفظـه مـن القـرآن الكـريم الـذي يعادل ثلاثة أرباع المصحف دون خطأ.

في المسـاء بعـد صـلاة المغـرب قـام الأخ الأكـبر. بزيـارة

أخيه أبي إبراهيم، وبينهما يحتسبان الشاي طلب الأخ الأكبر من أخيه أن يرسل ابنه غدا للكتاب (المدرسة) عند المطوع ليستكمل حفظ ما بقىٰ من القرآن الكريم.

وفي ضحىٰ الغد ذهب إبراهيم متأخر قليلاً إلىٰ الكتاب (المدرسة) وهو غرفة ملحقة بالمسجد حيث وجد غرفة المدرسة مكتظة بالطلاب فأخذ يتجاوز الصفوف بحذر بالغ، متجهاً للفتحات التي تفصل بينهم حتىٰ وجد مكاناً خالياً فجلس.

لم يقطع المطوع درسه عند دخول إبراهيم. بل استمر في التلاوة والطلبة يتلون وراءه حتىٰ انتقل للمرحلة الثانية وهي الإطلاع علىٰ الألواح وما خطته أنامل الطلاب من تلاوات الأمس لينتقل بعد ذلك للمرحلة الثالثة وهي الاستماع لمحفوظات الطلاب منه من قراءات الأمس.

عندها أعطىٰ المطوع الإذن للطلاب بالانصراف عند اقتراب أذان الظهر فهب الطلاب مسرعين للخروج ومن ضمنهم إبراهيم. إلا أنه فوجئ بأن المطوع يطلب منه البقاء.

حين انصرف جميع الطلاب ولم يبق سوىٰ المطوع وإبراهيم دعاه المطوع وعندما جاء إليه سأله. هل أنت تبصر يا إبراهيم؟ قال: نعم. قال المطوع: لقد كنت أعرف أن الجدري قد ذهب بنور عينك قال: إبراهيم هذا صحيح، فقال المطوع: ولكنني احسست من مسيرك بين الطلاب أنك عدت مبصرا قال إبراهيم: نعم لقد أكرمني الله بإعادة البصر إلىٰ عيني اليمنىٰ حتىٰ كأنها لم تفقد النور لحظة واحدة. عندها وضع المطوع سبابته علىٰ شفتيه وقال: (إص. إص) بمعنىٰ لا يدري أحد أنك تبصر. لقد كان المطوع خائفاً عليه من العين.

وهكذا استمر إبراهيم في متابعة الدراسة حتىٰ أتم حفظ القرآن الكريم وعمره لم يتجاوز الثانية عشره.

توفي المطوع (عبدالعزيز بن محمد الفنتوخ) رحمه الله ليستمر إبراهيم بعد ذلك في متابعة دراسته في علوم اللغة العربية علىٰ يد مطوع آخر هو (عبد العزيز بن سليمان الفريح) رحمه الله. لينتهي به الأمر لأن يكون علامة في علوم

اللغة، وحافظاً لقسم النحو من ألفية بن مالك وجزءاً من الصرف علاوة على حفظ الأجرومية والرحبية، والتاريخ الإسلامي.

واستمر إبراهيم مصاحباً للقرآن الكريم يتلوه في نهاره وليله وحضره وسفره مأموماً وإماماً أحياناً في قريته أو خارجها لمن يعمل لديهم حتى وصلت به الحال إلى أن اصبح إماماً لجامع قريته لمدة (42) عاماً إلى أن توفى رحمة الله تعالى، وكان إبراهيم أحد عشرة أشخاص حفظوا القرآن كاملاً على يد المطوع (عبدالعزيز الفنتوخ) نفع الله بهم في إمامة الناس طيلة (75) عاماً.

10 - سرحان

10 -سرحان (1)

كانوا أخوة ثلاثة، وكانوا يعتبرون من أشهر المزارعين في الجهة الجنوبية الشرقية من القرية حيث كانت الزراعة مهنتهم الوحيدة نظراً لكثرة النخيل التي ورثوها وبقية أفراد أسرتهم من أجدادهم منذ أكثر من أربعمائة سنه.

كما اشتهروا أيضاً بأنهم أول من استعمل الإبل في عملية رفع الماء من الآبار (السانية) ورغم أن كثيراً من المزارعين ساروا علىٰ هذا الطريق إلا أنهم بقوا الأشهر لأنهم هم من كان سباقاً إلىٰ هذا التجديد في عملية السقي.

كانوا يزرعون أراضي نخيلهم بزراعة الموسم. من برسيم إلىٰ قمح إلىٰ خضروات وهلم جرا ويعتنون بالنخيل عناية قصوىٰ حتىٰ كأنها أولادهم كما اشتهرت نخيلهم بغزارة الانتاج وجودته حتىٰ أن الأهالي كانوا ينتظرون بفارغ الصبر موعد (الحراج) لشراء ما تيسر لهم من التمور الجيدة.

---

(1) أخذت هذه الحكاية من أحد الأصدقاء وكتبتها بأسلوبي الخاص.

كانت مهمتهم في الزراعة مقتصرة علىٰ ثلاث آبار قديمة (الجفر) أو ما يسمىٰ بأبي مصفاه. والبدي علىٰ مقربة منه وبئر ثالثة خاصة بهم لأنها توجد في أحد بساتين النخيل المملوكة لهم لا ينازعهم فيها منازع.

وكان لهم أبناء عم لا يقلون عنهم شهرة في مجال الزراعة إلا أن نشاطهم كان موجهاً لبساتين النخيل التي تقع في شمالي القرية في حين اختص هؤلاء بما هو موجود في الجنوب.

كانوا يأتون صباح كل يوم في الغالب لاقتياد إبلهم أو المواشي الأخرىٰ إلىٰ حيث آبار السقي للاستفادة منها في عملية رفع الماء ثم يعودون بها إلىٰ حضيرتها متىٰ ما انتهىٰ الوقت المخصص لهم لكي يأتي فلاح آخر. عدا البئر الموجودة في ملكهم الخاص حيث لا ينافسهم منافس.

حينما يدخل الأخوة الثلاثة مواشيهم في حضيرتها المجاورة لأحد بساتين النخيل الذي يملكون جزءاً منه، يقومون بوضع الأعشاب أمامها لتأكلها، ويغلقون باب

الحضيرة وينصرفون ولا يعودون إلا في صباح اليوم التالي.

في إحدىٰ فترات الزمن لاحظ هؤلاء الأخوة ملاحظة غريبة تتعلق بمواشيهم وهي أنهم حين يأتون للسقي صباحاً يجدونها أنها لم تطعم الأعشاب التي ألقيت أمامها ليلة البارحة كما لاحظوا أن ظهورها ووجوهها مبللة بحبات العرق وإذا اقتادها للسقي لوحظ تثاقلها في المسير، وحين يشدون عليها أدوات السقي ويبدأون هذه العملية يومياً يلاحظون تثاقل الماشية في الذهاب والإياب بين المعدل في آخر "المنحاة" والمصب.

لم تكن تلك الملاحظة وليدة يوم واحد فقط إذا لربما أرجعها الأخوة إلىٰ حالة مرضية، ولكن هذه الحالة بقيت صفة مستمرة تتكرر صباح كل يوم.

أخذوا يتناقشون في المشكلة يحاولون الوصول إلىٰ تفسير واقعي لما يحدث حتىٰ استقر رأيهم جميعاً علىٰ أن هناك من يأتي ويأخذ مواشيهم ليلاً ويذهب بها للسقي عليها ويعيدها قبيل الفجر بقليل، وأن هذا هو سر إرهاقها وعزوفها

عن أكل الأعشاب.

لكن السؤال الذي بقىٰ بلا إجابة مدة من الزمن هو.. من الذي يأخذ مواشيهم وهم نائمون؟

هل هو أحد المزارعين الآخرين؟ لا فهذا مستحيل لأن هذه عملية احتيال لا تقع في مجتمع يتصف بالأخلاق العالية وحب المساعدة والتعاون في الملمات.

هل يأخذها أحد من خارج القرية؟ وكانت الإجابة لا يمكن لأن القرية التي تقع جنوباً عنهم يتصف مزارعوها بالطيبة والصدق في المعاملة، ولا يمكن أن يلجأ أحد منهم إلىٰ مثل هذه الحيلة. علاوة علىٰ أنه لا بد أن ينكشف أمره في أحد الأيام.

هل هم المزارعون خارج سور القرية الذين يزرعون مساحات صغيرة لأشجار الخضروات، ولا نخيل لديهم؟ لا يمكن إطلاقاً أن يصدر هذا الاحتيال منهم لأنهم يعتمدون في رفع الماء غالباً علىٰ سواعدهم فقط لأن الآبار التي يسقون منها خضرواتهم غير مهيأة في غالبها لاستعمال المواشي.

انتهت تساؤلات الأخوة الثلاثة إلىٰ عدم الوصول إلىٰ نتيجة، ولكنهم مصرون علىٰ أن هناك سبباً خفياً لابد من العمل علىٰ كشفه، ولكن ما هو هذا السبب الخفي؟

قال الأخ الأكبر.. في هذه الليلة لن أذهب إلىٰ منزلي بل سوف اختفي في مكان مقابل حظيرة الماشية، وأترقب لأعرف هذا السر الخفي.

وافقه أخواه علىٰ اقتراحه، وعندما قاموا بوضع مواشيهم في حضيرتها بعد غروب الشمس دخل الأخوان إلىٰ القرية أما الأخ الأكبر فذهب واسند ظهره علىٰ جذع شجره من الأثل مقابل الحضيرة.

كان في المكان عدة أثلات، وكانت واحدة منها تكاد تكون منزلاً لكلب أسود ضخم لا يغادرها إلا للبحث عن لقمة العيش إذا عضه الجوع.

ما لاحظه الأخ الأكبر. أن الكلب لم يكن موجوداً في مكانه المعتاد الذي لا يبعد من مكان الأخ الأكبر سوىٰ أمتار قليلة فأخذ الرجل يراقب الحضيرة ويلتفت ذات اليمين

وذات الشمال ورغم أنه قد مضىٰ من الليل ثلثه تقريباً إلا أنه كان قادراً علىٰ رؤية ما يحدث حوله وذلك لأن القمر كان في منتصف الشهر وقد غمر بساتين النخيل بضيائه الفضي.

فجأة لمح الرجل شبحاً عند باب الحضيرة لم يتبين ما هو، فأخذ يقترب منه في خفية وهدوء لكي لا يلفت نظره فيهرب فيما لو كان لصاً.

تفاجأ الرجل بأن الشبح الموجود عند باب الحضيرة. هو الكلب الأسود الذي ينام تحت شجرة الأثل المقابلة كل ليلة، ولكن ماذا أتىٰ به؟ ليس في الحضيرة شيء يصلح لأن يأكله. فجأة رأىٰ الرجل الكلب ينتفض فينقلب بشراً سوياً في هيئة إنسان كامل الخلقة، وإذا به يفتح باب الحضيرة ويقتاد المواشي.

سار الرجل خلف (الكلب المتجنس) عدة خطوات لكي يكتشف أنه يسير في دروب لا يعرفها ولم يسبق له أن سار فيها ورأىٰ بساتين نخيل لا يعرفها، وآبار مياه لم يسبق له أن رآها، كل ذلك حدث وهو لم يمش سوىٰ أمتار قليلة.

أدرك الرجل أنه يسير في عالم غير عالمه، وأرض غير أرضه. عالم مختف عن عيون البشر العاديين، ولولا قوة إيمان هذا الرجل وذكره الدائم لله، وقراءته للأدعية لربما أصابه خوف بل جنون، ولكن الله أنزل على قلبه السكينة.

فجأة وقف (الكلب المتجنس) أمام إحدى الأبار، وأخذ يشد (معدات السني) على ظهور المواشي، ويبدأ في عملية رفع الماء (السانية) والرجل يتابع ما يجرى أمامه وكأنه في حلم وليس في واقع وأخذ يرفع صوته بالغناء لكي يساعده على السهر والعمل وينشط الماشية أثناء عملية رفع الماء قائلاً:

يسمونني سرحان وأنا محمد

والناس ما يدرون عما جرى لي

ليت الشتا شهرين والقيض عشره

واقضي شفاتي في غلاك كل غالي

سمره تصيح وتزعج الصوت لدحيم

تقول ذا غرب ثقيل عليه

حتىٰ غروس الإنس ما يصرمونها

وإن جذو الشمراخ جذو ضمايري

أمضىٰ (الكلب المتجنس) ساعات تقريباً في متابعة (السواني) ثم قام بتفكيك معدات السقي عن ظهور الماشية، واتجه عائداً من الطريق الذي أتىٰ منه، والرجل يسير في أثره.

وقبل الوصول إلىٰ حظيرة الماشية بأمتار قليلة اكتشف الرجل أنه يسير في عالمه الذي يعرفه وطرقه التي يسلكها كل يوم وبساتين النخيل التي يسير بينها.

قام الكلب المتجنس بإدخال الماشية إلىٰ الحضيرة، وأقفل عليها الباب ثم انتفض مرة أخرىٰ ليعود كلباً أسوداً ثم أخذ طريقه إلىٰ شجرة الأثل التي يتخذها منزلاً، وتمدد تحتها وأسلم عينه لنوم طويل ولكن لم يدرك أن هناك من يتبعه.

عاد الرجل إلىٰ قريته بعد أن عرف السر وراء تعب الماشية وبينما هو في الطريق سمع آذان الفجر فاتجه إلي المسجد وأدىٰ صلاة الفجر مع الجماعة وحينما خرج من المسجد وجد أخويه ينتظرانه، فسألاه هل عثرت علىٰ شيء؟

فأجاب أنه متعب لأنه لم ينم واستأذنهم في الذهاب إلىٰ منزله للراحة علىٰ أن يلاقيهم ضحىٰ عند البئر ويحكىٰ له ما شاهده في ليلته.

جاء الرجل بعد أن استراح في منزله ونام نوماً عميقاً لمدة ثلاث ساعات ليجد أخويه ينتظرانه ويعدان العدة ويجهزان الماشية لدورة جديدة في رفع الماء.

حكىٰ الأخ الكبير لأخويه ما شهده بالتفصيل، وانه لا يوجد لص يسرق الماشية، ولكن الحكاية كلها تتعلق بالكلب الأسود الذي ينام كل ليلة تحت الشجرة المقابلة للحضيرة وأنه ليس كلباً في صورته الحقيقية بل هو (جني) في صورة كلب يعود لأصله حينما يهم باستياق الماشية.

قال الأخوان: وما هو الحل لتلك المعضلة؟ هنا قال الأخ الأكبر: الحل عندي. ليذهب معي أحد كما إلىٰ حيث ينام الكلب ويظل الآخر مع السواني.

ومضىٰ الأخوان. الأخ الأكبر وأحد أخوية، واتجها إلىٰ حيث عدوهم الكلب وكانت بيد الأخ الأكبر عصا وحينما

قرب من الكلب تلا على نفسه آية الكرسي والمعوذات ودعا ببعض الأدعية المحصنة وأمر أخاه بذلك لكي لا يلحقهما شر من ذلك الجني.

هنا تقدم الأخ الأكبر من الكلب ونخسه بعصاه وهو ينشد:

يسموني سرحان وأنا محمد

والناس ما يدرون باللي جرالي

وقال للكلب (هذا آخر العهد بك فكفنا من شرك وارحل إلى مكان آخر، وإلا ستتعرض للأذى منا كما تعرضنا له منك) وحكى للكلب قصته معه البارحة من أول ما أخذ الماشية حتى أعادها إلى الحضيرة، وحينما سمع الكلب تهديد الأخوين نهض من مرقده وخرج من المنطقة كلها.

عاد الأخوان إلى البئر لمساعدة أخيهما في السقي ومتابعة السواني، وذهب أحدهما لتصريف الماء في الأحواض، وفي المساء أعاد الأخوة الماشية إلى حضيرتها حيث قال الأخ الأوسط أنه سيسهر الليلة تحت شجرة الأثل ليرى هل يعود الكلب ويفعل كما فعل البارحة أم لا؟

ذهب الأخوان الآخران إلىٰ القرية، وبقىٰ الأخ الأوسط ساهراً حتىٰ قرب الفجر ولم يعد الكلب إلىٰ مكانه، ولم يفعل ما فعله في الليلة السابقة حيث عاد الأخ الأوسط إلىٰ قريته.

في الصباح جاء الأخوة الثلاثة إلىٰ الحضيرة لاقتياد الماشية إلىٰ البئر بانتظار دورهم في (السقي) وكم كانت مفاجأة سارة حينما لاحظوا أن الماشية يبدو عليها النشاط والراحة، وأنها أكلت عشاءها ليلة البارحة.

وحينما عادوا بالماشية إلىٰ حضيرتها قال الأخ الأصغر لقد حان دوري للسهر هذه الليلة للتأكد من أن الكلب لن يعود فربما كان غيابه ليلة البارحة خدعة.

وهكذا أمضىٰ الأخ الأصغر ليله، ولكن الكلب لم يعد وحينما ارتفع أذان الفجر رجع عائداً إلىٰ قريته.

وهكذا انتهت قصة اللص الخفي الذي يأخذ الماشية لاستعمالها لا لسرقتها إلىٰ غير رجعه.

واطمأن الأخوة الثلاثة- وعادت الماشية إلىٰ أكل أعشابها.

11 - ابـن شـرفـان

11 -ابن شرفان[1]

وصلت القافلة قبيل غروب الشمس بقليل إلىٰ (دحل) أبو قرون الواقع في الصمان، وقام أفرادها، بإناخة الجمال وإنزال أحمالها للتخفيف عنها ومن ثم أثاروها، وعقلوا يديها، وأطلقوها ترعىٰ فيما حولهم.

اشعلوا النار لإعداد القهوة، وإعداد العشاء خاصة وأنهم جائعون بعد ان ساروا مسافة طويلة متعبة من الضحىٰ إلىٰ قبيل الغروب لم يتناولوا فيها سوىٰ الماء.

بعد صلاة المغرب تحلقوا علىٰ شكل دائرة علىٰ النار، وكل منهم أخذ يقوم بعمله المطلوب منه لإعداد القهوة والعشاء، وأخذوا خلال ذلك يتناقشون في موضوع التزود بالماء من جوف الدحل، وكيف يتم النزول إليه ومن سيقوم بذلك وفناجين القهوة تدور بينهم.

---

(1) سمعت هذه الحكاية من أحد الأصدقاء، وطلبت منه تدوينها وإعطائي نسخة منها ففعل جزاه الله خيراً ثم كتبتها بأسلوبي الخاص.

إنبرىٰ احد رجال القافلة واسمه (ابن شرفان) من أهالي أشيقر، واعلن استعداده للنزول غداً للقيام بالمهمة نيابة عن رفاقه.

تناول أفراد القافلة طعام العشاء المكون من الأرز واللحم، ثم استمروا في تجاذب أطراف الأحاديث عما جرىٰ لكل منهم خلال رحلته في هذه الحياة.

وقبيل منتصف الليل تفرق الرجال للنوم لكي يستيقظوا مع موعد صلاة الفجر لتأدية الصلاة، ومتابعة الاستعداد للرحلة.

الاحتمال يقول أن أفراد القافلة ربما كانوا عائدين من الكويت بعد انتهاء موسم الغوص علىٰ اللؤلؤ لكي يمضوا ما بقي من العام في قراهم، وإنفاق ما حصلوا عليه في رحلة الغوص علىٰ عوائلهم علىٰ أن يعودوا مع بداية الموسم القادم في شهر يونيو حسب التوقيت الميلادي.

استيقظ أفراد القافلة وأدوا صلاة الفجر ثم أشعلوا النار مرة أخرىٰ لإعداد القهوة والحليب. وأخذوا يرتشفون

القهوة، ويأكلون التمر كما اصطبحوا بحليب إحدىٰ النياق الموجودة ضمن القافلة ثم قاموا بتسخين بعض الحليب، وتناولوه مع بعض قرصان البر المدهونة بالسمن مما جلبوه معهم.

تفرق الرفاق بعد ذلك حوالي الدحل. هذا لمراقبة الجمال وهذا للاحتطاب من أجل الاستعداد لمتابعة الرحلة.

ارتفعت الشمس، وعادوا إلىٰ الدحل للبدء في عملية استخراج الماء، وكانت الشمس مضيئة وصافية وقد تساقطت أشعتها نسبياً في فوهة الدحل فأضاءته.

قام ابن شرفان بعقد أحد الحبال القوية (الرشا) في صخرة كبيرة ذات عنق منغرسة في الأرض علىٰ مقربة من الدحل، ولما تأكد من إنجاز هذه المهمة بشكل صحيح قام بعقد الطرف الثاني في وسطه بأسلوب الخبير في أداء هذه المهمات، ثم اتجه إلىٰ الدحل استعداداً للنزول.

طلب ابن شرفان من رفاقه أن يمسكوا الحبل، ويقوموا بإرخائه قليلاً قليلاً لمساعدته علىٰ النزول بشكل سليم،

وعدم تمرجحه في الهواء، كما تصوبع بيديه وقدميه في جدار الدحل لمساعدته في عملية النزول.

كان عمق الدحل تقريباً في حدود (10-15 متراً.) كما كان لشدة ضيقه لا يسمح إلا بتواجد رجل واحد.

وصل ابن شرفان إلىٰ قاع الدحل بسلامة الله، وكم كانت سعادته لا توصف حين وجد أن أرضيته صخرية مما ساعد علىٰ صفاء مائه، ونظافته كما تذوق قليلاً منه ليكتشف أنه عذب قراح بارد.

أعطىٰ ابن شرفان الإشارة لرفاقه عن طريق شد الحبل بعد أن فكه من وسطه، وهنا قام الرفاق برفع الحبل، وعقدوا الدلو في طرفه ثم إنزالها إليه.

كانت دلوا كبيرة يحتاج رفعها إلىٰ سواعد قوية، وقام ابن شوفان بغطسها في الماء حتىٰ امتلأت ثم أعطىٰ الإشارة لأصحابه مدعومة بصوته حيث قاموا برفع الدلو، وهكذا استمروا لمدة خمس ساعات، وهم يرفعون الماء ويملؤون القرب بالماء وبصب الماء في الحوض الصخري المجاور

للدحل، ثم ملأوا الدلو وتركوها بجانب أدوات القهوة والأكل للاستعمال اليومي ثم استعدوا لمساعدة رفيقهم ابن شرفان في الخروج من الدحل بعد أن أدىٰ المهمة علىٰ أكمل وجه.

كان ابن شرفان مندهشاً من وجود مغارات وكهوف علىٰ جنبات الدحل يتسرب الماء منها إلىٰ قاع الدحل، ولم يكن يتجاوز نصف قامة الساقي.

أغراه هذا المنظر باستكشاف مجاهيل هذه الكهوف والمغارات فدخل إلىٰ إحداها سابحاً، وأوغل في المسير علىٰ ألا يبتعد عن قاع الدحل، وكان كلما أوغل اشتد عليه الظلام خاصة مع بداية انصراف الشمس، كما كان الكهف أو المغارة يتفرع في الداخل إلىٰ عدة مغارات وكهوف وطرق ملتوية تحتاج إلىٰ خبرة لمعرفتها لشدة ظلامها، وقد نسي ابن شرفان في ذروة اندهاشه أن يضع علامات تساعده علىٰ العودة. ولهذا فإنه لما حاول العودة ضاع ولم يعد يعرف أي طريق يسلك، وزاد الظلام الدامس الطين بله، فلم يعرف ماذا

يفعل، وتفاقمت المشكلة لديه، وأحس بأن نهايته قد تكون في تلك الظلمات.

انتظر رفاق الرحلة إشارة ابن شرفان لرفعه من الدحل، ولكنهم كلما شدوا الحبل وجدوه خفيفاً مما يؤكد أن ابن شرفان لم يربطه في وسطه بعد، وكرروا المحاولة عدة مرات، وكانت النتيجة واحدة، وأخذوا يصوتون بصوت مرتفع، وساعدهم الصدىٰ علىٰ ذلك منتظرين أن يرد عليهم صاحبهم، ولكن كانت النتيجة مخيبة للآمال.

تسلل الخوف والقلق إلىٰ قلوب رفاق ابن شرفان خوفا من أن يكون قد غرق، أو لدغته أفعىٰ من تلك الأفاعي التي جعلت الفجوات ما بين الصخور مسكنا لها.

وتداول الرفاق الرأي فيما يفعلون ليعرفوا مصير صاحبهم واستقر الرأي علىٰ نزول أحدهم لمعرفة الخبر اليقين.

جذبوا الحبل وقاموا بشده في وسط احدهم علىٰ طريقة ابن شرفان وانزلوه إلىٰ قاع الدحل.

أصيب الرجل بالدهشة لأنه لم يجد ابن شرفان في قاع الدحل الضيق لأن مستوىٰ الماء لا يوحي بإمكانية الغرق، والتفت يميناً ويساراً في مداخل المغارات فلم يعثر له علىٰ أثر.

قام الرجل بالدخول إلىٰ إحدىٰ المغارات للبحث عنه ويبدوا أنه دخل إلىٰ مغارة مقابلة للمغارة التي ذهب إليها ابن شرفان وأخذ يبحث عنه، ولكنه لم يستطع التعمق خوفا من الظلام وعدم القدرة علىٰ الرجوع،. خاصة وأن الشمس علىٰ وشك الغروب فآثر العودة وإبلاغ أصحابه بالنتيجة البائسة.

أبلغ الرجل رفاقه بأنه لم يعثر لابن شرفان علىٰ أثر لا غريقا ولا ملدوغا وأن الاحتمال هو أنه دخل إلىٰ إحدىٰ المغارات، وذهب بعيداً ولم يستطيع العودة.

خيم الحزن علىٰ رفاق الرحلة، وهم متحلقون حول النار، وران عليهم صمت ثقيل، وأخذ من يصب القهوة يصبها علىٰ الأرض بدلاً من الفنجان لشروده.

آثر الرفاق بعد تأدية صلاتي المغرب والعشاء الانصراف

للنوم لأنهم لم يجدوا رغبة في الأكل ولا الحديث حزنا على مصير صاحبهم.

استلقىٰ كل منهم علىٰ فراشه محاولاً النوم ولكن من أين يأتي إلىٰ عينيه؟، وظل كل منهم ساهما يعد نجوم السماء اللهم إلا من دقائق متقطعة يسرقها النوم منهم، واستطال الليل عليهم حتىٰ ظنوا ألا نهاية له. كليل النابغة الذبياني.

أدىٰ الرفاق صلاة الفجر، واجتمعوا اجتماعـًا صامتا علىٰ النار منتظرين أن تسفر الدنيا من حولهم فيكررون رحلة البحث عن صاحبهم الضائع.

وما أن بزغت الشمس إلا وكان أحد الرفاق قد ربط الحبل في وسطه وأخذ رفاقه يساعدونه في النزول للبحث، الذي وللأسف الشديد لم يؤد إلىٰ نتيجة ايجابية. ليصعد الرجل بعد أن أصابه التعب والإرهاق، وينزل آخر بدلا منه ليصل إلىٰ النتيجة السلبية نفسها.

وهكذا ظل رفاق ابن شرفان يكررون النزول مرتين أو ثلاثـًا كل يوم حتىٰ يئسوا من العثور عليه، وترحموا عليه علىٰ

اعتبار أنه توفى، ولكنهم لا يعلمون كيف حدث هذا؟.

بعد نقاش طويل استقر رأي رفاق ابن شرفان على الرحيل متجهين إلى قراهم وأهاليهم خاصة، وأن الأكل قد بدأ يقل، ويخشون من نفاده في هذه الصحراء المترامية الأطراف.

في صباح اليوم التالي قام الرفاق بتجهيز جمالهم للرحيل وشدوا عليها الأمتعة وساروا متجهين جنوباً إلى وجهتهم، وربطوا راحلة ابن شرفان في محمل إحدى الرواحل الأخرى.

وصل أفراد القافلة بعد مسيرة لا تقل عن خمسة عشر يوماً إلى منطقة الوشم، وتفرقوا إلى حيث يسكن أهاليهم، وذهب بعض منهم، وربما يكونون من أهل أشيقر إليها، وابلغوا عائلة ابن شرفان بالخبر المحزن الذي لم يكونوا يرغبون في حدوثه ولا سماعه.

خيم الحزن على وجوه عائلة ابن شرفان بل وعلى القرية كلها وتبدلت أفراحهم إلى أحزان، وأتى الناس من جميع أحياء القرية للتعزية في ابن شرفان منوهين بصفاته الحميدة

وفضائله العديدة من شجاعة وكرم وإيثار، وطلبوا له الرحمة بالدعاء في صلواتهم ولبست زوجه السواد، ودخلت في مرحلة الحداد علىٰ زوجها.

مضىٰ ما يقرب من أربعين يوماً علىٰ حادثة فقد ابن شرفان وتعامل أهله مع أن هذه الحادثة واقع لا سبيل إلىٰ تغييره وان تلك إرادة الله في خلقه جميعاً. فعادوا كمثل الآخرين إلىٰ مزاولة أعمالهم التي تجود بها عليهم بيئة شحيحة.

بعد أيام اجتمع ورثة ابن شرفان لاقتسام تركته، وكانت مؤلفة من منزله الذي يسكنه وأسرته وناقته ودريهمات مما حصل عليه من مهمة الغوص وبقرة.

استقر رأي الورثة علىٰ توزيع الدريهمات حسب الفرائض، وعلىٰ بيع الراحلة لعدم الحاجة اليها، وتوزيع قيمتها وبيع البيت علىٰ الورثة مع تأجيل دفع القيمة مراعاة لظروف الأسرة المادية.

بقيت البقرة، وكان ابن شرفان قبل انتجاعه شمالا قد قام

باقتيادها وإدخالها علىٰ أسرة فقيرة مؤلفة من أم وأطفال يتامىٰ، وقال لهم هي لكم اشربوا لبنها حتىٰ تجف.

استعاد الورثة البقرة من الأسرة الفقيرة اليتيمة باعتبارها أصبحت إرثا لا يملك أحد أن يتنازل عنه لأنها ليست ملكا خاصا به ولحاجتهم إلىٰ لبنها.

ووجدوا أن أفضل ما يقومون به تجاه قسمة البقرة. لأنهم لا يرغبون في بيعها ولا ذبحها، وضعها في الحظيرة واقتسام لبنها بين الورثة وهكذا كان.

في هذه الأثناء رأىٰ أخ ابن شرفان في منامه رؤيا تؤكد بأن أخاه حي لم يمت في داخل الدحل، ولهذا فإنه ما أن أسفر الصبح لذي عينين حتىٰ جمع رفاقه وأبلغهم بهذه الرؤية وأعلن انه سيذهب لدحل (أبو قرون) للبحث عن أخيه، وطلب منهم مرافقته.

وافق أصحاب الأخ علىٰ مرافقته وذهب كل منهم لتجهيز راحلته بما يلزم من ماء وأكل وخرجوا جماعة في اليوم الثاني، واقتاد أخ ابن شرفان معه ناقه لذبحها عند وصول

القافلة إلىٰ الدحل.

بعد أيام وصلت القافلة إلىٰ الدحل، فقام أفرادها بنصب الخيمة، وإنزال الأمتعة وإطلاق الجمال بعد تقييدها للمرعىٰ.

قام أخ ابن شرفان بذبح الناقة، وقطع لحمها، وعلقه علىٰ أغصان الأشجار المرتفعة لكي لا يفسد بعد تمليحه، كما قام بقشط شحوم الناقة وإذابتها، وقام بدهن حبال النزول التي معه ببعض الشحم المذاب لتقويتها، كما قام بلف قطعة قماش كبيرة علىٰ عصا غليظة لكنها لا تسمح لليد بأن تمسكها بسهولة، ثم قام بإغراق هذه الكرة في وعاء به دهن من شحم الناقة المذاب، وتركها فيه حتىٰ صباح اليوم التالي.

بعد أن ارتفعت الشمس قيد رمح استعد أخو ابن شرفان للنزول إلىٰ قاع الدحل فربط طرف حبل الرشاء في الصخرة ربطاً محكماً لا يسمح بانفلاته، وربط وسطه بالطرف الثاني، وطلب من رفاقه مسك الحبل وإرخائه وهو ينزل قليلاً قليلاً حتىٰ استقر علىٰ أرض القاع الصلدة.

هناك قام أخو ابن شرفان بإشعال النار في طرف كرة القماش حيث تحولت إلىٰ قطعة من الضوء تنير له الطريق، وعلىٰ اسم الله بدأ رحلته بالدخول مستنيراً بالشمعة التي يحملها في يده إلىٰ المغارة، وكان كلما سار عدة أمتار يضع في السقف علامة تساعده عند الرجوع لمعرفة الاتجاه السليم، وهي عبارة عن خطوط من الفحم.

كما كان يضع هذه العلامة عند تفرع المغارة إلىٰ عدة مغارات، وكان وهو يسير داخل المغارة ينادي بأعلىٰ صوته قائلاً (يا ابن شرفان)، وعند مفرق إحدىٰ المغارات الفرعية تخيل أنه يسمع صوتا هزيلاً، نادىٰ مرة ثانية وثالثة حتىٰ تأكد أن هناك من يرد عليه. سار في المغارة الفرعية متبعا الصوت الذي يجاوبه حتىٰ أصبح قريباً منه، حيث بدا له كالشبح. ما أن قرب منه حتىٰ فوجئ بأخيه (ابن شوفان) وهو متربع في جلسته علىٰ إحدىٰ الصخور والماء يغرق ركبتيه.

كم كانت سعادته كبيرة وحمد الله علىٰ هذا التوفيق الذي صادفه بسرعة. مد يده إلىٰ أخيه وساعده علىٰ النهوض ثم

وضع يد أخيه اليمنىٰ خلف رقبته، ووضع يده اليسرىٰ تحت إبط أخيه ابن شرفان، وأخذ يسير علىٰ هدىٰ الشمعة رويدا رويدا متبعا علامات الفحم في معرفة الطريق.

لم يلبث سوىٰ نصف ساعة تقريبا ليجد نفسه في قاع الدحل، هنا قام أخ ابن شرفان بربط وسطه ووسط أخيه بطرف الحفل ربطـًا قويـًا، وأعطىٰ إشارة لرفاقه عن طريق مس الحبل والتصويت حيث أدرك هؤلاء الرفاق الإشارة وقاموا بجذب الحبل إلىٰ أعلىٰ، وكم كانت دهشتهم أن رأوا أخ ابن شرفان يخرج من الدحل محتضنا أخاه بين يديه وهو يبدو من الهزال كالطير المنتوف.

أسرع الرفاق إلىٰ تخليص ابن شرفان وأخيه من الحبل حيث اتجه أخ ابن شرفان بأخيه إلىٰ الخيمة، وفرش له فراشا وأضجعه، وتركه ينام، ثم قام بتقطيع بعض اللحم وقام بطبخه علىٰ النار، ولما نضج عندها أيقظ أخو ابن شرفان أخاه، وقدم له اللحم الذي لم يتوان ابن شرفان عن التهامه التهام من لم يذق طعم الأكل منذ عشرات الأيام، ثم قدم المرق بعد

أن خفت حرارته إلىٰ أخيه الذي لم يتوان عن ارتشافه ارتشاف الظامئ الصادي.

وهكذا أمضت القافلة حوالي خمسة أيام في إقامتها قرب الدحل لكي يتسنىٰ لابن شرفان أن يرتاح، ويسترد نشاطه، وكان أخوه في كل يوم يقوم بطبخ اللحم مرتين مرة في الضحىٰ ومرة بعد غروب الشمس حتىٰ تمكن من استرداد العافية وبدأ ينهض من مقعده ويسير خارج الخيمة.

في الليلة الأخيرة قبل الرحيل سأل أخ ابن شرفان أخاه كيف عشت في هذه المغارة الدامسة؟ فقال: أنه لم يكن يعرف الليل من النهار إلا بزقزقة العصافير فقال: وكيف قاومت العطش والجوع؟ فقال: لم يكن هناك عطش لأن الماء يجري محيطا بي. أما الأكل فلا يوجد، ولكن الله قيض لي شخصاً لا أدري من أين يأتي، ويقدم لي وعاءً من الحليب لأشربه ويتكرر ذلك كل يوم مما ساعدني علىٰ البقاء حيا. إلا أنه انقطع عني منذ أيام ولم أره بعدها مما سبب لي الجهد والضعف في الصباح.

بعد أن صلىٰ الرفاق الفجر، وشربوا القهوة مرفوقة ببعض التمرات، واصطبحوا بالحليب بارداً، وشربوه ساخناً مع بعض أقراص البر المدهون بالسمن مما أحضروه معهم، قاموا بشد الأمتعة علىٰ الجمال ثم امتطوها في طريقهم إلىٰ أشيقر، وركب ابن شرفان رديفاً لأخيه، وسارت القافلة متجهة جنوبا علىٰ بركة الله.

بعد عدة أيام وصلت القافلة إلىٰ أشيقر حيث تفرق الرفاق، واتجه اخو ابن شرفان براحلته إلىٰ منزل أخيه حيث فوجئت العائلة الحزينة بدخول أبوهم ابن شرفان عليهم، وكان مشهداً مؤثراً لا يحيط به قلم. مشهد دموع الفرح بعودة الغائب بعد أن كانوا يظنون أنه مات.

تبدلت أحزانهم إلىٰ أفراح وأتراحهم إلىٰ مسرات وانتشر خبر عودة ابن شرفان إلىٰ أهله حيا يرزق انتشار النار في الهشيم، فتوافد الناس من جميع أنحاء القرية، وخارجها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة بعد أن اعتقد الناس انه قد رحل للعالم الآخر، كما هي سنة الله في الكون.

ظللت البيت غمامة من السعادة، وعم الفرح كل شيء وخلعت زوج ابن شرفان ثوب الحداد، وبقي ابن شرفان بمنزلة تحوطه عناية الله ثم العائلة عدة أيام لا يخرج حتىٰ يسترد عافيته ونشاطه بعد هذه الأحداث المؤلمة التي مرت به.

بعد أيام بدأ ابن شرفان في الخروج من المنزل، والجلوس في مجلس القرية يحادث الناس ويحادثونه، ويحكي عليهم قصته منذ رحيله للبحث عن الرزق حتىٰ عودته إلىٰ القرية.

في إحدىٰ الأمسيات، وكان ابن شرفان جالساً تحيط به عائلته وأخوه سأل ابن شرفان العائلة عن ناقته فقال أخوه: لقد بعناها وأضفنا ثمنها إلىٰ الدريهمات الموجودة في رحالك، وقسمت علىٰ الورثة. فقال ابن شرفان: وماذا بشأن البيت؟ فقال أخوه: لقد اشتراه أولادك، ولكن تم تأجيل استلام القيمة حتىٰ تتوافر لديهم.

قال ابن شرفان لماذا استعجلتم في توزيع التركة لماذا لم

تنتظروا عاما كالمتبع حتىٰ تتأكدون من موتي.

فقال أخوه. انك لم تضل طريقك في مفازة طويلة عريضة ذات رمال وأودية وجبال لكي ننتظر، ولكنك اختفيت في بقعة محدودة من الأرض مليئة بالكهوف المظلمة والأفاعي السامة فغلب عندنا الظن بموتك إن لم يكن بسبب الأفاعي فليكن بسبب الجوع والخوف والرهبة.

ثم طلب أخو ابن شرفان من الأسرة إعادة الأموال التي قسمت إلىٰ أخيه.

هنا قال ابن شرفان والبقرة؟ فرد أخوه قائلاً: أنها في الحظيرة وقد اتفق الورثة علىٰ إبقائها وتوزع حليبها لأنهم وجدوا انه لا يجوز بيعها علىٰ الجزار. فقال ابن شرفان ومتىٰ استعدتم البقرة؟ فقال زوجه: في اليوم الفلاني. فأطرق ابن شرفان إلىٰ الأرض وأخذ يفكر ويعد بأصابعه ثم قال للمحيطين به سبحان الله لقد وافق يوم انقطاع الحليب في يوم استرجاعكم البقرة من اليتامىٰ، ثم نهض واقفا فقال له أخوه إلىٰ أين يا أخي؟ فرد ابن شرفان إلىٰ البقرة. وفعلا ذهب إلىٰ

حظيرة البقرة وقام بإخراجها واقتيادها إلىٰ منزل الأسرة الفقيرة اليتيمة وأدخلها عليهم، وقال لهم كما كان سابقا. هي لكم اشربوا لبنها حتىٰ تجف.

وعاد إلىٰ بيته وهو يحدث نفسه عن فضل عمل الخير وأن منحه هذه البقرة لهذه العائلة الفقيرة كان سبباً في إنقاذه من شبح الموت الذي كان قريبا منه في ظلمات المغارة.

12 - فرعون: أشيقري أم قصبي؟

فرعون: أشيقري أم قصبي؟[1]

هما روايتان إحداهما تقول إن فرعون من أهل أشيقر، والأخرىٰ تقول إنه من القصب.

سأورد الحكايتين، وأترك للقارئ حرية الاختيار والتصديق بأن فرعون من أهل أشيقر أو أنه من أهل القصب. أو يرفض الروايتين وينظر إليهما من منظار الأساطير التي ما انزل الله بها من سلطان، وتمتلئ بها الحكايات الشعبية، وهذا هو الاعتقاد الأقرب.

تقول الرواية الأولىٰ إن فرعون اسمه الحقيقي (عون) وإنه من أهل أشيقر وكان فتىٰ ذكياً وموهوباً إلا أن الزمن وقف ضده فلم يكن يحالفه الحظ في أموره كلها.

وكان يدبر أمور معيشته بالاستدانة من تجار أشيقر

(1) أخذت هذه الحكاية في فرعها الأشيقري من أحد الأصدقاء، ثم قام بتدوينها وإعطائي نسخة منها وقد كتبتها بأسلوبي الخاص، أما الحكاية في فرعها القصبي فقد أخذتها سماعاً من أحد الرواة، وكتبتها بأسلوبي الخاص أيضاً.

الأغنياء حتىٰ اجتمعت عليه ديون كثيرة عجز عن سدادها هنا جاء إليه التجار يطالبونه برد أموالهم وهو يعدهم بالوفاء ويماطلهم ويسوف في المواعيد، ولما ضاق به الأمر وأحس أن التجار لن يتركوا أموالهم حتىٰ لو أدىٰ ذلك إلىٰ سجنه قرر الهرب، وهذا ما حصل منه في إحدىٰ الليالي حيث خرج متخفيا هاربـاً من الدائنين واتجه نحو الشمال الغربي للجزيرة العربية.

افتقد أهالي أشيقر خاصة التجار منهم (عون) وبعد البحث والاستقصاء عرفوا بأنه هرب بأموالهم فقالوا (فر- عون) وهكذا أصبح يسمىٰ فرعون واسقط في يد الدائنين ولم يجدوا ما يقولون سوىٰ حسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان في أشيقر شخص آخر لا يقل عن (فرعون) دهاء وذكاء اسمه (مان) حينما عرف بقصة هروب (فرعون) جمع التجار والدائنين وطلب منهم جزءا من أموالهم مقابل البحث عن (فرعون) وإرجاع حقوقهم إليهم بل وإعادة فرعون إلىٰ أشيقر ليقتص الدائنون منه ويتم سجنه.

وافق الدائنون علىٰ عرض (مان) وهنا خرج من أشيقر مبتدئا مهمته وأخذ يتنقل بين القرىٰ سائلاً عن (فرعون) باسمه المعروف عند الأهالي (عون) أو بصفته، وما زال سائراً حتىٰ وصل إلىٰ إحدىٰ المناطق في شمال الجزيرة العربية.

فجأة وكان (مان) يتجول في السوق إذ أبصر (فرعون) فذهب مسرعـاً إليه وأمسك به قائلاً كيف تهرب بأموال الناس؟ واخبره أن الدائنين قد وكلوه للبحث عنه مقابل جزء من الأموال التي هرب بها.

وأبلغه (مان) أنه لن يتركه بل سيعود به إلىٰ أشيقر لكي يقتص منه الأهالي لقاء خيانة الأمانة.

أخذ (فرعون) يفكر في تلك الورطة الجديدة التي وقع فيها، ولم يكن يحسب لها حسابـاً ويبحث عن حيلة للخروج منها. هنا قال مخاطبـاً (مان): هل أنت مجنون تريد أن تعود بي إلىٰ أشيقر حيث حياة العوز والمجاعة والفقر؟ ضع يدك في يدي ولنكن أصدقاء، وسأعطيك نصف الأموال التي معي،

ونتجه شمالاً للبحث عن بلد يعيش أهله في غنىٰ وعز.

وافق (مان) علىٰ عرض (فرعون) ورمىٰ باتفاقه مع أهالي أشيقر عرض الحائط وبالمبلغ البسيط الذي سيأخذه كأجر علىٰ بحثه عن (فرعون)

أسقط في يد أهالي أشيقر حين تأخر (مان) عن العودة، ولكنهم لم يتخيلوا أنه قد قابل (فرعون)، وحصل بينهما اتفاق. بل ظن الأهالي أنه ضاع وهام علىٰ وجهه، وهكذا أصبحوا يرددون (فرعون) و (هامان) الذي اصبح هذا اسمه بعد الضياع المزعوم.

وضع فرعون يده في يد صديقه (هامان) واتجها شمالاً وعبرا جزيرة سيناء حتىٰ وصلا (مصر) ولكن الرواية لم تحدد أي منطقة أو مدينة في مصر بل تركت الأمر مطلقاً وعبرت عنه بالاسم الأكبر والأشهر (مصر)

افترق الصديقان وضل كل منهما عن الأخر، و ذهب فرعون للبحث عن قصر الملك حتىٰ وجده ثم ذهب للمقبرة.

هناك رأىٰ المصريين يدفنون موتاهم بلا مقابل، فما كان منه إلا أن تولىٰ مهمة حفر القبور، وفرض علىٰ المصريين دفع ثمن القبر وأجرة الدفن التي كانت تزيد وتنقص حسب قدرة أهالي المتوفي، ولم يعارض المصريون لطيبتهم هذا الإجراء من فرعون.

كان فرعون يأخذ الأموال ويحولها إلىٰ ذهب ويدفنه في ناحية من المقبرة وفي مكان لا يعرفه سواه لحاجة في نفس يعقوب.

اشتهر فرعون لدىٰ العامة وأخذوا يتناقلون سيرته خاصه، وأنه كانت لديه القدرة في خداعهم بصدقه وتدينه في الوقت الذي كان يخطط فيه سرا للتغلغل في الحياة السياسية المصرية.

كان الملك في أثناء ذلك يعاني من تدني الميزانية، وهبوط المستوىٰ الاقتصادي بسبب الحرب التي يمولها الشمال في الجنوب، ولا يدري ماذا يفعل، وكيف يواجه الكارثة التي قد تؤدي إلىٰ انهيار المملكة.

عرف فرعون بحالة الملك وحاجته إلىٰ المال فذهب لقصر الحكم وطلب مقابلة الملك الذي أذن له في مقابلته، وحينما دخل علىٰ الملك أبلغه أنه قد رأىٰ رؤيا تتحدث عن وجود كنز في المملكة، وقريب من الملك، وأن هذا الكنز سيحل المشكلة الاقتصادية التي يواجهها الملك، وطلب فرعون من الملك ان يكلف مجموعة من العمال لمساعدته في البحث عن الكنز.

لم يتأخر الملك في تلبية طلب فرعون، وأمده بما طلبه من العمال الذين ذهب بهم فرعون إلىٰ المقبرة وأخذ وإياهم يبحثون عن الكنز في أماكن لم يكن فرعون قد دفن فيها شيئاً، وإنما للتمويه، واستمر في البحث المصطنع حتىٰ وصل إلىٰ المنطقة التي دفن فيها الذهب حيث استخرجه العمال وهم يظنون أنهم عثروا علىٰ كنز حقيقي غير مدركين لخدعة فرعون.

ذهب فرعون إلىٰ الملك وأعطاه الكنز الذي سُر به كثيراً لأنه سوف يحل له مشكلة تموين الحرب وتعزيز الاقتصاد.

قربت مسألة الكنز فرعون من الملك، ووثقت الصلة بينهما حيث ان الملك أدرك أن فرعون يتمتع بمواهب إيجابية يحتاج الملك اليها.

من أجل هذا عرض عليه الملك أن ينضم اليه كأحد خاصته في القصر، فوافق فرعون وانضم إلىٰ حاشية الملك، ومازال يترقىٰ في سلم المناصب حتىٰ استطاع مع مرور الزمن أن يتولىٰ الملك بنفسه، وإن تكن الرواية قد اغفلت كيف حصل ذلك، هل هو نتيجة وفاة الملك أم نتيجة مؤامرة دبرها فرعون.

ذاع صيت فرعون بعد أن تولىٰ الملك وطارت شهرته في الآفاق، ووصلت إلىٰ مسامع (هامان) الذي لم يتأخر في الذهاب إلىٰ قصر الحكم، وطلب مقابلة الملك فرعون الذي رحب بصديقه الغائب وعينه وزيرا له.

انتهت بذلك قصة فرعون الأشيقري لتبدأ قصة فرعون القصبي التي تتفق معها أحياناً وتفترق عنها في بعض الأحداث والوقائع.

تذهب تلك الرواية إلىٰ أن فرعون كان من أهل القصب وأن اسمه (عون) وأنه كان رجلا ذا دهاء وفطنة وذكاء، وكان وضعه المالي في الحضيض حتىٰ أنه لا يكاد يحصل ما يساعده علىٰ المعيشة وكان (هامان) صديقاً خاصا لعون ويتصف بنفس صفاته من دهاء وفطنة، ولم يكن اسمه في البداية (مان) كما كانت تقول الرواية الأشيقرية.

اضطر عون للاستدانة ليعيش خاصة في ظل ضيق فرص العمل وتدني الأجور، ورحب الدائنون من أهل القصب به ولبوا له طلبه وأعطوه ما يريد من المال خاصة، وأن صديقه هامان قد التزم أمام الدائنين بأنه كافل غارم عن عون.

حل موعد السداد وجاء أصحاب الأموال إلىٰ عون وطلبوا منه الوفاء، ولم يكن لدية قدرة علىٰ ذلك لأن ما عنده لا يفي باستحقاقاتهم المطلوبة منه لذا أخذ عون يؤجل دائنية، ويسوفهم ويماطلهم في الوقت الذي أخذ يفكر فيه في حيلة تخلصه من ورطة الوفاء بالدين حتىٰ وجد أن الفرصة تلك تعني الهرب ولا مجال غيره.

هرب عون في جنح الليل، ولم يشعر به احد حتىٰ صديقه وكافله هامان، وأخذ ينتقل من قرية إلىٰ أخرىٰ ومن منطقة إلىٰ منطقة ثانية حتىٰ اجتاز سيناء ووصل إلىٰ مصر، ولم تحدد الرواية أي مكان في مصر، وإنما اكتفت بإطلاق الاسم العام (مصر) كما في الرواية الأشيقرية.

افتقد الدائنون عون وأخذوا يبحثون عنه فلم يجدوه وسالوا هامان فقال إنه يبحث عنه منذ فتره ولم يعثر عليه. أدرك الدائنون وأهالي القصب ان عون قد هرب فأخذوا يرددون (فرّ- عون) وهكذا اصبح اسمه المعروف به (فرعون).

جاء الدائنون إلىٰ هامان وطالبوه بإحضار (فرعون) أو التسديد باعتباره قد التزم للدائنين بأنه كافل غارم.

طلب هامان من الدائنين إمهاله فترة للبحث عن فرعون وإحضاره والزامه بالتسديد، وإلا اضطر هو – اي هامان– للتسديد نيابة عنه، ووافق الدائنون علىٰ طلبه.

خرج هامان من القصب بحثا عن فرعون، وأخذ ينتقل

من قرية إلىٰ أخرىٰ ومن منطقة إلىٰ منطقة ثانية، يسأل عن فرعون باسمه وصفته، ولكن لم يجد عنه خبراً وقادته قدماه في البحث بعيداً، ولم يشعر إلا وقد وصل إلىٰ مصر دون أن يدري أن فرعون قد وصلها قبله.

ذهب فرعون إلىٰ المقبرة وأقام بها وبني له حجرة ثم اخذ يقوم بحفر القبور وفرض علىٰ اهالي المتوفي رسوما، وهي عبارة عن ثمن القبر، وأجرة الدفن، ولم يعترض عليه أحد من الناس وكثر المال بين يديه حتىٰ اشتهر وذاع صيته بين طبقات الشعب المصري.

وصلت أخبار فرعون إلىٰ الملك فطلب من أعوانه إحضاره إليه حيث ذهب الأعوان إلىٰ المقبرة واقتادوا فرعون إلىٰ مجلس الملك الذي بادره عند مشاهدته: هل صحيح أنك تأخذ رسوماً علىٰ دفن الموتىٰ؟ فقال فرعون: (نعم) فقال الملك: ومن أمرك بهذا؟ فرد فرعون قائلاً: ومن نهاني؟ وهكذا أصبحت هاتان العبارتان مثلاً عامياً (قال من ومرك؟ قال من نهاني؟).

أدرك الملك بثاقب بصيرته أن فرعون رجل ذكي وداهية، وأنها تتوفر فيه صفات ايجابية يفتقدها كثيرا من الرجال، لذا عرض عليه الملك أن يترك المقبرة، وأن ينضم إلىٰ الحاشية في القصر، فوافق فرعون علىٰ ذلك العرض. فما كان من الملك إلا أن عينه وزيراً له.

كان الوضع الأمني في المدينة التي يوجد بها الملك غير مستقر، ولا مريح حيث يكثر اللصوص وينتشرون في الشوارع، ويرهبون الناس، ويسرقونهم. علاوة علىٰ وجود قطاع الطرق منتشرين علىٰ الطرقات العامة، ولم تنتج الملاحقة الأمنية لهم نفعاً. مما زاد من قلق الملك وخوفه من تطور الأمر إلىٰ ما لا تحمد عقباه.

عرض الملك المشكلة علىٰ وزيره فرعون، وسأله عن الحل. فوجد فرعون في ذلك فرصة لتنفيذ إحدىٰ مآربه في طريق الحصول علىٰ السلطة والحكم المطلق بدلاً من الملك.

اقترح فرعون علىٰ الملك أن يصدر مرسوماً ويقرأ علىٰ

الناس في الشوارع والطرقات يحظر خروج الناس من منازلهم عند منتصف الليل ومن وجد في ذلك الوقت فعقابه القتل حتىٰ لو كان الملك.

وافق الملك علىٰ هذا الاقتراح وأصدر مرسوماً بذلك أذيع علىٰ الناس، وعلق علىٰ الجدران. فخاف الناس وكانت النتيجة أن هدأت الأمور وأستقر الأمن بطريقة مثالية، واستراح الملك حيث لم يعد للصوص أي اثر.

لكن فرعون كان بعكس الملك إذ لم يكن مرتاحاً لاستتباب الأمن لغاية في نفسه بل كان يود عودة عدم الاستقرار ولو بشكل جزئي.

عمد فرعون إلىٰ تكليف بعض أعوانه بالخروج عند منتصف الليل والتجمع حول مقر الملك وإحداث بعض الضوضاء، واضطراب الأمن ، وجلس فرعون يراقب الأمر من بعيد.

نفذ الأعوان توجيهات فرعون، ولما سمع الملك الهرج والمرج والضوضاء خرج من قصره ليتقصىٰ الأمر. هنا

أمسك به فرعون، وقال له: ما الذي أخرجك في هذا الوقت فقال له: إنني الملك، وخرجت لاستقصاء الأمر. فقال فرعون إنك قلت في مرسومك (فجزاؤه القتل حتىٰ لو كان الملك)، ولذا لابد من قتلك لأنك خالفت أوامرك، ولم يتأخر فرعون في تنفيذ مخططه إذ أمر أعوانه بقتل الملك ففعلوا.

تولىٰ فرعون الملك وأصبح الحاكم المطلق وذاع أمره بين الناس حتىٰ سمع به هامان الذي لم يعثر عليه حتىٰ الآن رغم جهوده الحقيقية في البحث عنه، فما كان منه إلا أن اتجه لقصر الحاكم، وطلب مقابلة الملك فرعون الذي أذن له، ولم يكن يعلم من هو، وحينما رأىٰ فرعون هامان عرفه، وأدرك أنه ما جاء إلىٰ مصر إلا بحثاً عنه لتسديد ديونه فخشىٰ من أن يفضحه هامان ويكون سبباً في ثورة الناس عليه.

لم يتأخر فرعون في إصدار الأمر لحراسه بسجن هامان في إحدىٰ غرف القصر دون أن يكلمه بكلمة واحدة، وأن يسأله عما أتىٰ به لأنه يعرف السبب مقدماً.

في الليل وبعد أن هدأت الحركة داخل القصر وأوىٰ سكانه إلىٰ النوم تسلل فرعون إلىٰ سجن هامان، والتقىٰ به، وسأله عما أتىٰ به فقال له هامان أنه التزم لأهالي القصب بإحضارك فقال له فرعون وهل تظن أنني ساترك حكم مصر وأعود معك للقصب ثم هل تستطيع إعادتي؟ هذا مستحيل ولا تملك القدرة عليه، ولكني بدلاً من الفضيحة أو سجنك بشكل دائم أقول: دع القصب وأهله ودائنيه خلف ظهرك، وأقم عندي حيث العز والثروة والجاه وأعينك وزيرا لي احتراماً لصداقتنا.

فكر هامان قليلاً، ثم وافق علىٰ عرض فرعون، وترك أهالي القصب خاصة أصحاب الديون خلف ظهره.

مضت الأيام والشهور علىٰ اعتلاء فرعون عرش مصر، وازداد تكبراً وغروراً وتسلطاً، ووسوست له نفسه أنه ليس بشراً وليس ملكاً علىٰ مصر ولكنه إله للشعب المصري وأحضر وزيره هامان وأعلمه بذلك، وطلب منه ألا يدخل عليه أحد من الناس إلا هو، وفرض علىٰ نفسه عزلة أرادها

هو، ولم يردها الآخرون.

أذعن هامان لتوجيهات فرعون، وأصبح ينوب عنه في مقابلة الناس والاستماع إلىٰ شكاواهم، والعمل علىٰ حلها، ولم يسمح لأحد مطلقاً بمقابلة فرعون.

في يوم من الأيام فوجئ هامان بجموع غفيرة من النساء تطوق القصر الملكي، وتطلب من هامان مقابلة الملك فرعون إلا أن هامان رفض ذلك، وطلب معرفة سبب مجيئهن لإبلاغ فرعون بذلك.

استمع هامان إلىٰ شكوىٰ النساء، وكانت مشكلة اجتماعية فقال لهن: أنه سيبلغ فرعون بالمشكلة، ويعطيهن الجواب بعد أسبوع. فانصرفت النساء.

بعد أسبوع عادت النساء لمعرفة جواب فرعون فقابلهن هامان، وابلغهن بأن الملك رفض الاستجابة لطلبهن. فطلبن منه مقابلة فرعون فقال هامان لا يمكن ذلك لأنه (لاه في خلق الإبل) التي أصبحت مثلاً. ولم تجد النسوة أمام رفض طلبهن إلا الانصراف.

وهكذا استمر فرعون يحكم مصر ملكا وهامان وزيرا إلىٰ ما شاء الله، وأهالي القصب يضربون كفا بكف علىٰ هرب فرعون وهامان معـًا.

13 - شكر الشريف وآل عريعر في أشيقر

13 - شكر الشريف وآل عريعر في أشيقر[1]

في سنوات مضت لا يعرف عددها لم يكن مشهوراً في منطقة نجد من القرىٰ سوىٰ أشيقر فقط، وكان يحكمها في ذلك الزمن شكر الشريف بن هاشم؛ الذي لم يكن يكيل لأحد، ولا يسمح له بالنزول عنده إلا إذا وافق علىٰ تزويجه.

دخل الشريف شكر مجلسه وأخذ مكانه وبدأ في تجاذب أطراف الحديث مع خاصته فيما يتعلق بأمور قريته التي يحكمها، وأحوال من يحيطون بها ممن سمح لهم بالنزول علىٰ موارد المياه.

فجأة دخل مجلس شكر مجموعة من الغرباء الذين ألقوا السلام عليه فرد عليهم التحية بأحسن منها، وطلب منهم الجلوس ثم انصرف إلىٰ خاصته لإكمال حديثه معهم.

بعد أن اختتم شكر حديثه مع خاصته اتجه إل وفد الغرباء وسألهم من أنتم؟ وماذا تريدون؟ فقال له الغرباء:

---

(1) برواية أحد الرواة في عنيزة.

نحن آل عريعر جئنا لكي نقضي شهور الصيف علىٰ موارد المياه في أشيقر، ونأمل أن تسمح لنا بذلك، أطرق شكر وحنىٰ رأسه قليلاً، وأخذ يفكر بعد أن وضع رأس المطرق الذي بيده علىٰ جبهته، ثم رفع رأسه وقال للغرباء: إنه موافق علىٰ نزولهم علىٰ موارد المياه إذا قبلوا شرطه، فقالوا: ما هو؟ فقال: أن تزوجوني إحدىٰ فتياتكم. نظر الغرباء إلىٰ بعضهم البعض، وتداولوا في الموضوع، وأخيراً اتفقت كلمتهم علىٰ أن يردوا عليه في مساء هذا اليوم، وفي هذا المجلس نفسه.

ذهب آل عريعر إلىٰ رواحلهم، وهناك استدعىٰ الأمير ابن عريعر أخته الجازي أم محمد، وأبلغها بشرط الشريف ابن هاشم، وسألها إذا كانت توافق أن تتزوجه لكي يوافق علىٰ طلبهم بالنزول عنده.

وافقت الجازي أم محمد علىٰ طلب أخيها، وفي المساء ذهب وفد آل عريعر إلىٰ شكر في مجلسه، وأبلغوه موافقتهم علىٰ شرطه، فقبل منهم شكر الشريف عرضهم، وتم زواجه من الجازي أم محمد، وضرب آل عريعر خيامهم حول موارد

المياه في جو أشيقر.

مضت عدة أيام رتيبة في أحداثها لم يكن هناك شيء مهم سوىٰ أن آل عريعر يذهبون صباحاً ويعودون مساءً.

في أحد الأيام أبلغ آل عريعر شكر الشريف برغبتهم في الخروج للقنص والصيد، وقالوا أن رغبتهم لا يمكن أن تتم إلا إذا وافق الشريف علىٰ الخروج معهم لأنه لم يكن يعرف القنص، وليس بهواية له، ولم يسبق له الخروج في قبل هذه الرحلة.

وافق الشريف علىٰ رغبة آل عريعر؛ الذين جهزوا له ناقة برحلها ولوازم القنص من قوس وسهام وطير حر؛ كي يرسله شكر علىٰ فريسته ثم خرجوا إلىٰ البرية بعد أن استكملوا تجهيزاتهم.

أمضىٰ آل عريعر وشكر الشريف سحابة يومهم في مطاردة القنص من ظباء وحباري وإطلاق الصقور ثم القيام بطبخها في جو من الإنس والبهجة والانشراح حتىٰ إذا حل المساء عادوا إلىٰ أشيقر.

وفي الغد استعدوا للخروج، ولكنهم اشترطوا علىٰ شكر القبول بفكرة النوم في البرية، وعدم الرجوع إلىٰ أشيقر في نهاية اليوم، كما حدث في اليوم السابق، فوافق شكر علىٰ شرطهم، ولم يكن شكر يعلم ما هو الداعي لهذا الشرط، وكان يظن ذلك مزيداً من الاحترام والتقدير لموافقته علىٰ نزولهم عنده.

أما آل عريعر فكان شرطهم هذا بداية لتطبيق وتنفيذ مؤامرة ضد شكر الشريف لم يطلع عليها سواهم.

وهكذا أمضىٰ آل عريعر اليوم الثاني برفقة الشريف شكر في مطاردة الصيد بالصقور، ورميه بالسهام والنبال، وكان الصيد وافراً والأجواء ربيعية جميلة، فقالوا لشكر بأنهم يرغبون بالبقاء في البرية والمبيت لمدة يومين أو ثلاثة، ومن ثم يعودون إلىٰ أشيقر، فوافق شكر علىٰ رغبتهم؛ لأنه قد تولع في الصيد، وأنس بمطاردة الغزلان والحباري، وارتاح إلىٰ الجو الربيعي الجميل.

وكان السبب في طلب آل عريعر البقاء في البرية يومين أو ثلاثة هي رغبة داخلية في نفوسهم لإذاقة شكر الشريف

المهانة والعذاب مثل ما ذاق من السعادة والهناء، وذلك لأنهم يرون أنه قد أذلهم بعدم الموافقة علىٰ نزولهم عنده إلا إذا زوجوه؛ لذا كان تمديدهم لرحلتهم خديعة منهم لإبعاد شكر عن أشيقر حيث كانوا كل يوم يشرق عليهم يذهبون للصيد في مكان أبعد، ولم يكن شكر يدرك هذه الخديعة لجهله بمسارب البرية.

في هذه الأثناء كان آل عريعر قد أرسلوا سراً مندوباً منهم لإبلاغ أهاليهم أن يلحقوا بهم لأنهم يريدون العودة إلىٰ بلادهم، وجعلوا موارد الصمان موعداً للالتقاء.

عرفت الجازي بالمكيدة والخديعة التي يرسمها أهلها لزوجها شكر الشريف، وسكتت الجازي، ولم تبح لشكر الشريف بشيء، وأخذت تنفذ ما يطلبه أهلها، وقبل أن ترتحل نزلت إلىٰ السوق حيث اشترت زرابيل واشترت صبراً وقطناً ثم ارتحلت مع أهلها.

كانت الجازي إذا نزل أهلها مكاناً للنوم تجعل خباءها موجهاً لنجم الجدي ومتطرفاً عن بقية الأخبية لغاية لم تقل

لأحد عنها شيئاً، ومضت عدة أيام علىٰ رحيل آل عريعر حتىٰ وصلوا إلىٰ الصمان موعد اللقاء بأهلهم الذين خرجوا بشكر الشريف للقنص.

كان النعام وفيراً في تلك المنطقة؛ لذا بحثت الجازي عن بيضة نعام وربما أكثر، ولما عثرت عليها بخفية قامت بكسرها كسراً صغيراً، وأفرغتها من مخها ومحها ثم ملأتها وما معها من البيض بالحليب، وسددت مكان الكسر بعجينة ثم قامت بدفنها من الصبر والزرابيل والقطن في المكان الذي اعتادت عند النزول.

وصل آل عريعر الذين خرجوا للصيد مع شكر الشريف، ومن ضمنهم أخو الجازي إلىٰ الصمان؛ حيث اتفقوا علىٰ اللقاء، وفي الليل مضت الجازي إلىٰ خباء شكر حيث قضت الليل معه، وقبيل الفجر أخبرته بمكيدة إخوتها وآل عريعر بأنهم سيطلقونها منه، وسيتخلصون منه بإحدىٰ طرق ثلاث. إما القتل أو سمل العينين أو سلخ الرجلين حتىٰ لا يستطيع المشي، وطلبت الجازي منه أن يختار الثالثة فهي أخف الشر،

ثم أشارت إلىٰ المكان الذي تحتها والذي وضعت فيه البيضة أو البيض والقطن والصبر والزرابيل، وأخبرته أن هذه الأشياء هي التي سوف تساعده علىٰ الحياة والنجاة، وما الخيارات الثلاثة إلا اختيار لطريقة الموت فقط.

طلبت الجازي من شكر أن يقوم بعد سلخ قدميه باستخراج ما دفنته بعد رحيلهم، وأن يشرب من الحليب، وأن يضع الصبر علىٰ قدميه ويلفهما بالقطن، ويلبس الزرابيل، ثم يبدأ في المسير إل أهله رويداً رويداً، وأن يتبع آثار رواحلهم حينما جاءوا من أشيقر حتىٰ لا يهلك.

في الصباح ودع شكر الشريف الجازي أم محمد وذهب إلىٰ إخوتها وآل عريعر كي لا يشعروا بمعرفته بنيتهم، وحين فرغ من (شرب القهوة) أخبره آل عريعر بالاختيارت الثلاثة لتعذيبه، فاختار الثالثة كما طلبت منه الجازي وهي سلخ القدمين.

سلخ آل عريعر وفي مقدمتهم أخوة الجازي قدمي شكر الشريف، وتركوه وارتحلوا ومعهم الجازي أم محمد، وحين

ابتعدوا عنه، وغابوا عن ناظريه، أخذ يزحف إلىٰ المكان الذي أشارت إليه الجازي، وحين وصل إليه بعد جهد قام باستخراج بيض النعام المدفون والصبر والقطن والزرابيل، وفعل ما أشارت به الجازي عليه، ثم اتجه عائداً إلىٰ أشيقر وهو يمشي رويداً رويداً، ويقاوم التعب والإرهاق متتبعاً آثار رواحل آل عريعر في قدومهم من أشيقر إلىٰ الصمان، وكان يستريح بين لحظة وأخرىٰ إذا أحس بالتعب، ويحرص علىٰ المشي جزءاً من الليل نظراً لاعتدال الجو، وبهذه تحقق بعض العذاب الذي أراده آل عريعر لشكر الشريف، ولكنه عذاب أخف من القتل أو سمل العينين، ولكنه استطاع النجاة بنفسه من الموت بفضل ما عملته الجازي له من استعدادات أكدت ذكاء تلك المرأة الخارقة وتميزها، وحبها لشكر الشريف.

بعد أيام من بداية الرحلة حيث كان يتحسن يوماً بعد يوم، وتخف عنه أثار السلخ، وساعده الحليب في البقاء حياً دون أكل، أشرف عل أشيقر من خلال وصوله إلىٰ جبل طويق رغم وجود كثيب الرمل الذي يفصل بين أشيقر

وطويق، جلس فوق صخرة في الجبل وأخذ يفكر في الجازي التي أحبها، والتي أنقذته من موت محقق، والتي أنساه زواجه منها زواجه السابق بتسعين فتاة بكراً، وتسعين زوجة ثيباً، بحثاً عن ذرية لم يكتبها الله له.

استغرق شكر في تفكيره في أمر الجازي، وأدرك أن آل عريعر لو يعلمون بنجاته فإنهم ربما يعاودون الانتقام منه؛ لذا قام شكر ببناء رجم من الحجارة لكي يوصله إلىٰ غار في الجبل، ولما صعد الرجم إلىٰ الغار(1)، وأخذ يتأمل أشيقر علىٰ البعد، وسمع سجع الحمام قام بفصد عرقه وإسالة دمه، وكتب قصيدة طويلة، وحين فرغ منها ألقىٰ بنفسه من هذا الغار المرتفع حتىٰ بلغ الأرض وأصبح جثة هامدة.

يقول شكر في قصيدته:

يا شكر يا شكر الشريف بن هاشم
شوف الفجاح الخاليات يروع

(1) هكذا أورد في الرواية: وما أعرفه أن الرجم عبارة عن عمود مستقل من الحجارة، متوسط الطول، يوضع كعلامة للطريق ولا علاقة له بالوصول إلىٰ الغار.

ولـــي حمـــامتين بعـــالي وشـــيقر
وراكـــن فـــرق والحمـــام ربـــوع
بليـــتن يـــا فـــرق الحمـــام بنـــادر
مـن الشـرق محبـاط سـطىٰ بـه جـوع
يلقـف لكـن وإن عطيـتن مـع الغبـا
ومـع البيـان يعطـي لكـن برفـوع
ورا مـا تسـتمع يالجـازي أم محمـد
عطشـىٰ يـوم إن المكـان لمـوع
سـناف مـن غشـىٰ الغريـر مـع أمـه
تزيـد الهـوىٰ بقلـب كـل ولـوع
أخـذت تسـعين بيضـاً عفيفـة
وتسعين رجع وتسعين تونهودهن طلوع[1]
ولا لقيـت الجـازي أم محمـد
زبـد الضـحىٰ بـين اليـدين يمـوع

---

(1) البيت غير منسجم الوزن، وهكذا أورد في الرواية.

حلفت بـا لـثلاث المعـاني مـا أذوقهـن
لــو كــان مــا ألقــىٰ غيــرهن متــوع
مــنهن قلــب كــل مــا شــاف ريبــة
يفــر لــولا أن مــن وراه ضــلوع
ومــنهن عــين كــل مــا طقهــا النيــا
تهــل مــن بــين المحجــرين دمــوع
ومــنهن كــف كــل مــا طقهــا الصــدا
تزوعهــا الأيــام وهــي تــزوع
ولا ضــحكٍ إلا والبكــا مــردف لــه
ولا شــبعة إلا مقتفيهــا جــوع
ولا يــد إلا يــد الله فوقهــا
ولا طــايرات إلا وهــن وقــوع

14 - حـول الحكايـة

14 -حول الحكاية

هذه الحكاية ما هي إلا أسطورة من ضمن الأساطير المنتشرة في القرىٰ النجدية؛ بل في كل قرىٰ الجزيرة العربية، وليس لها حقيقة تاريخية.

- لم نسمع، ولم نقرأ أي معلومة عن وجود شكر الشريف في أشيقر علىٰ مر الزمان، وكذلك القول بالنسبة لآل عريعر.
- ما يوجد في أشيقر هو بعض الأسر الخالدية مثل: السياري، السالم، الماجد، ولا ندري عن قربها نسباً من آل عريعر أو بعدها.
- شكر الشريف شخصية حقيقية تاريخية معروفة اسمه شكر بن أبي الفتوح حكم مكة المكرمة ما بين سنتي (430 - 453هـ).
- مر الهلاليون في طريق التغريبة علىٰ مكة أيام شكر الشريف واتصلوا به، وزوجوه الجازي، وهي المعروفة

عند أهالي نجد بنوض بارق، وهي أخت حسن بن سرحان زعيم الهلالية، وكان لها ثلث المشورة كما يقال.

- بعد فترة طلب الهلاليون من شكر الشريف مصاحبتهم للقنص لعدة أيام فوافق وخرج معهم، وكانوا كل ليلة قبل العودة للمخيم يكلفون أشخاصاً بنقله إلىٰ مكان أبعد من الحرص علىٰ ألا يعرف شكر أن المخيم قد نقل من مكانه.
- وصلت دقة الهلاليين في نقل المخيم إلىٰ أن كان معهم فسيلة نخيل صغيرة وضعوها في خيمة الشريف في مكان محدد، يكررونه كلما نقلوا المخيم من أجل الإمعان في خداع الشريف.
- حينما ابتعد الهلاليون وشكر الشريف عن مكة بعيداً، وأصبح شكر بعيداً عن مناصريه وأعوانه، وضعيفاً أمامهم طلبوا منه طلاق الجازي، ويُقال والله أعلم أنها أنجبت منه ولداً اسمه محمد تولىٰ إمارة مكة بعد أبيه في حين تقول روايات أخرىٰ أنه كان عقيماً.

- ارتحل الهلاليون للمغرب العربي، وحينما وصلوا برقة في ليبيا رفض حاكمها ماضي بن مقرب الإذن لهم بالعبور فزوجوه الجازي.
- يوجد في ليبيا حالياً قبيلة تسمىٰ (الجويزية) نسبة إلىٰ الجازي التي يقولون إنها جدتهم.
- في قصيدة شكر الشريف خلط عجيب بينها وبين قصيدة ابن عبدالرحيم التميمي تتفق معها في أبيات، وتختلف في أخرىٰ، مع أن ابن عبدالرحيم شاعر عاش في أشيقر ما بين بداية القرن العاشر ومنتصفه، وبينه وبين شكر الشريف الحقيقي فاصل زمني يصل إلىٰ خمسمائة سنة تقريباً؛ مما يؤكد أسطورية الحكاية.
- من العجيب أن ابن عبدالرحيم بدا قصيدته بالقول:

أبحث العزايا شكر في راس مرقب

فمن يكون شكر هذا؟ لا أحد يعرف الحقيقة، ولكن المؤكد أنه ليس شكر الشريف الحقيقي.

- بعض الروايات تقول: إن قبر الجازي موجود في ولاية أم البواقي الجزائرية بالتحديد في قرية (الظلعة)، وهناك من يقول: في ولاية بسكرة.

فهرس الحكايات

م	عنوان الحكايات	الصفحة
	المقدمة	5
1	الفرج بعد الشدة	15
2	المقايضة	37
3	طبيب القرية (1)	53
4	طبيب القرية (2)	65
5	طبيب القرية (3)	75
6	العجوز المحتالة	89
7	يخلق من الشبه أربعين	109
8	شقاوة	125
9	الولد الوحيد	141
10	سرحان	163
11	ابن شرفان	177
12	فرعون: أشيقري أم قصبي؟	199
13	شكر الشريف وآل عريعر	217
14	حول الحكاية	231
	فهرس الحكايات	237

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

عنوان المؤلف

السعودية : محافظة شقراء -اشيقر

ص. ب 600

جوال 0505227082

بريد إلكتروني : al.bony@hotmail.com

دار تراث الوشم

دار تراث الوشم

لنشر وتوزيع الكتب التاريخية والتراثية والعروض الثقافية

ص.ب : ٩٦١ - الرمز : ١١٩٦١ - العنوان - شقراء - حليوة

dr.alhemaid@gmail.com

786030 230037